موقع الرؤية الكونية الإسلامية
في التجديد الحضاري المعاصر

بقلم:
عبد العزيز برغوث

Abstract

The present paper aspires towards exploring the position and role of the Islamic worldview on the contemporary civilizational reconstruction. There is still a problem in demarcating the dynamic socio-cultural function of the Islamic worldview in the process of re-inventing the new Islamic personality, culture and Ummah. As such, the Islamic worldview shoud regain its function as a pivotal catalyst of the process of civilizational reconstruction. The paper follows the textual analysis in order to disentangle the structural and functional dimensions of the Islamic worldview. In this regard, it is made clear that the Islamic worldview is meant for the re-invention of man, society, culture and civilizational values of Islam. On the other hand, the paper states that there should be a critical review of the existing theories on the Islamic civilization reconstruction. In this respect, a new multi-dimensional and multi-civilizational theory of reconstruction is barely required. As such, the Islamic worldview should become the deriving force and the cementing factor that can bring back the sense of efficacy, consistency and unity to the Muslim activities and processes of reconstruction. Finally, the paper calls for the fresh and sytematic review of the existing works and literatures on the issues pertaining to the reconstruction of the Ummah and the position of the Islamic worldview. Here, the first step should be the re-thinking and re-inventing of the civilizational dimension of the Islamic worldview and the Islamic reconstruction process.

المقدمة

مما لا شك فيه أن الأمة الإسلامية في مجموعها المعاصر تمر بمرحلة تاريخية وحضارية وثقافية ودينية عصيبة. فالوضع العام الذي تعيشه أجزاء كثيرة من أبناء الأمة ومجتمعاتها المتعددة يعكس لنا بوضوح نوعا من التأزم والتخلف الحضاري المزري. فسواء تعلق

الأمر بموقف الدوائر الرسمية أو الشعبية والدوائر السياسية أو العلمية والدوائر الفكرية أو الثقافية والدوائر الاقتصادية أو التقنية، فإن النتيجة لا تختلف كثيرا. فالكل يعبر عن الأزمة الحادة التي تمر بها المجتمعات العربية والإسلامية كل على حسب توجهه ومنطلقاته ومبرراته وتموقعاته. وقد لاقت هذه الحالة من الأزمة الحضارية المزمنة اهتماما كبيرا من قطاعات كثيرة داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها. وقد اختلفت تصورات الأفراد والجماعات والدول ورؤاهم لهذه الأزمة ونوعيتها وطبيعتها وأسبابها. فمنهم من يفسر أزمة الأمة بعامل واحد مثل كون أزمتها: فكرية أو علمية أو تقنية أو أخلاقية أو عقدية أو تربوية أو دعوية حركية أو سياسية أو مادية أو اقتصادية أو داخلية أو خارجية، ومنهم من يفسر الأزمة بعاملين مثل: الاستعمار والقابلية للاستعمار أو السياسة والاقتصاد أو الفكر والثقافة أو الأخلاق والتربية، ومنهم من يحلل الأزمة بأكثر من عاملين مركزا على مجموعة معينة من الأسباب والعوامل التي تساهم في ترسيخ الأزمة وإطالة أمدها.[1]

---

[1] للاطلاع على المشروعات النهضوية والإصلاحية الحديثة يمكن الرجوع إلى الأفغاني جمال الدين، الأعمال الكاملة، تحقيق: محمد عمارة - الجزء الأول: **الله والعالم والإنسان** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٩)، التونسي، خير الدين، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تحقيق وتعليق: معن زيادة (بيروت: دار الطليعة ١٩٧٨)، الطهطاوي، رفاعة رافع، **الأعمال الكاملة**، جمع وتقديم: محمد عمارة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٣-١٩٨١)، عبده محمد، **الأعمال الكاملة** (ستة أجزاء)،جمع وتقديم: محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢-١٩٧٤)، الكواكبي، عبد الرحمن، **الأعمال الكاملة**، تحقيق: محمد عمارة (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٥).

ويبدو أن عمق الأزمة وطولها وديمومتها واستمرارها وتأثيرها المتواصل على الأمة وإمكاناتها جعل الاهتمام بها يتزايد ويتنامى منذ قرنين من الزمان. ولهذا السبب نلاحظ غنى وتنوعا منقطع النظير في الأطروحات والمشاريع[٢] المتعلقة بمقاربة الأزمة ومحاولة تشخصيها ومعالجتها. ولكن الملفت للانتباه هو أن مقاربات أصحاب العامل الواحد وأصحاب العاملين وأصحاب العوامل المتعددة لم يتمكنوا في الغالب الأعم من تقديم **نظرية حضارية علمية متكاملة وشمولية للأزمة والعلاج**. أي أنهم لم يقدموا **التركيب الحضاري المنهجي** المؤهل لتشخيص الأزمة ومعالجتها. ولهذا السبب بقيت الكثير من هذه الأطروحات والمشاريع ناقصة بحاجة إلى إكمال وتعميق. ونحن عندما ندرس ذلك الكم الهائل من الآراء والنظريات والمشاريع التي جئتنا عبر ما يعرف اليوم **بمشاريع وجهود الحركات الإصلاحية والتجديدية الحديثة**[٣] **والمعاصرة** نستشعر ضخامة الكم الهائل من الجهود المبذولة للنظر في حال الأمة وأوضاعها الحضارية العامة. ولكن الملاحظ كذلك أن ذلك الكم الهائل من الأطروحات والأعمال والجهود لم يشفع في حال الأمة و لم يغير الكثير من المآسي والآلام التي تأكل طاقات الأمة وتتلف ثقافتها وحضارتها إتلافا سريعا وخطيرا. فالجهد الكمي الضخم لم يجاوز بالأمة بعد الحجاز الفاصل بين التخلف والتقدم و لم يمكنها من أن تنتقل من وضع الهوان والغثائية إلى وضع العزة والانسجام الفاعل. وعلى الرغم مما حققته الحركة الإصلاحية

---

[٢] أنظر: فهمي جدعان **أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث** الطبعة الأولى (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٨٩).

[٣] أحمد محمد جاد عبد الرزاق **فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي** الطبعة الأولى (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٥) ٢٧١ وما بعدها.

والتجديدية المعاصرة[٤] من إنجازات جزئية هنا وهناك إلا أن الوضع العام ما زال يستدعي الاهتمام أكثر وتركيز **الجهد المنهجي العلمي النوعي** في النظر إلى المشكلات بحثا عن التركيب المنهجي الحضاري اللازم لاسترجاع الفاعلية الحضارية والدخول في فعل حضاري معاصر يُمكن الأمة من استئناف رسالتها ودورها الحضاري التاريخي في عالم يواجه مشكلات وتحديات عالمية خطيرة. من هذا المنطلق فإن الورقة الحالية تحاول أن تواجه سؤال التجديد الحضاري بحثا عن المعاني والدلالات العميقة والمنطلقات المفتاحية لفهم الأزمة والمداخل المنهاجية لمعالجة أسباب الأزمة ودواعي استنباتها وتدويلها وتعميقها في الوعي الإسلامي وفي العمق الثقافي الإسلامي المعاصر الذي أصيب بأبشع صور التخلف والتفكك. وتنطلق هذه الورقة من ثلاثة مقدمات أساسية:

أولها: أن مشكلة الأمة لا يفسرها عامل واحد ولا عاملين ولا عوامل متعددة ولكن تفسرها نظرية منهجية حضارية علمية مركبة ومتكاملة تحدد لكل عامل أو سبب موقعه ودرجة تأثيره وكيفية تأثيره ومظاهره وأعراضه ونتائجه وشروط تأثيره وكيفية اكتشافه وتحديده والتعامل معه. فما لم نصل إلى تركيب نظرية حضارية منهجية فعالة للتعامل مع الأزمات والمشكلات فإن جهودنا ستبقى جهودا جزئية سطحية لا منهجية وقاصرة عن التصور الكلي للأزمة.

وثانيها: أننا بحاجة إلى إعادة النظر في مفهوم التجديد الحضاري ذاته كيما نعرفه ونحدده أخذين بعين الاعتبار أوضاعنا وواقعنا وظروفنا وحاجاتنا وإمكاناتنا ووسائلنا ومواقعنا الحالية لا التي ينبغي أن تكون أو التي كانت. فتفاعلنا مع سقف الوعي الحضاري القائم ومع الواقع العربي والإسلامي كما هو مرصود في عمق

---

[٤] راجع: مالك بن نبي **وجهة العالم الإسلامي** ترجمة: عبد الصبور شاهين الطبعة الأولى (القاهرة: دار العروبة ١٩٥٩).

الأحداث اليومية للإنسان شرط أساسي لفهمنا للأزمة وفهمنا لمداخل معالجتها. فمفهوم التجديد الحضاري الذي ننشده ينبغي أن لا يتجاوز هذه الأوضاع أو يتخلف عنها أو يتقدم عنها بل أن يستشعرها ويستوعبها ويجسد وعيه بها وعليها كما هي.

وثالثها: أننا بحاجة إلى إعادة النظر في موقع ودور الرؤية الكونية الإسلامية في مسألة التجديد الحضاري للأمة العربية والإسلامية. فمما لاشك فيه أن دور الرؤية الكونية الإسلامية في أي تجديد أو إصلاح دور أساسي وفاعل وحيوي. فدورها يعد بمثابة النفس التي بدونها يفقد الجسد كل حرارته وحياته. فصلة الرؤية الكونية الإسلامية بالتجديد الحضاري الإسلامي المعاصر مثل صلة الكون بقوانينه وسننه إذ كلما انخرمت هذه القوانين وتعطلت كلما أصاب الاختلال كامل البناء الكوني وهكذا كلما فقدت الرؤية الكونية الإسلامية في المحاولات التجديدية العربية أو الإسلامية كلما فقد هذا الجسد العربي والإسلامي حرارته وإشعاعه وروحه؛ وبالتالي يصاب بالبرودة والتجمد واليبس والعجز والفشل كما هو الحال في كثير من المجتمعات اليوم. ومن هنا ينبغي لنا في تحليل مسألة التجديد الحضاري المعاصر للأمة أن لا نغفل:

١) مسألة النظرية الحضارية المنهجية المركبة والمتكاملة للأزمة والعلاج.

٢) المفهوم المنهجي الواقعي الفعال للتجديد الحضاري.

٣) موقع الرؤية الكونية الإسلامية في التجديد الحضاري.

وعلى الرغم من الأهمية القصوى للعنصرين الأول والثاني، إلا أن الورقة الحالية ستركز التحليل في النقطة الثالثة بحثا عن بيان موقع الرؤية الكونية الإسلامية في التجديد الحضاري المعاصر. وذلك بعد أن نقوم ببعض التصفيات الأولية في مفهومي الرؤية الكونية والتجديد الحضاري. ويشتمل البحث على ثلاثة نقاط أساسية هي:

أولا: تعريف الرؤية الكونية الإسلامية وغاياتها الكبرى

ثانيا: أساسيات الرؤية الكونية الإسلامية

ثانيا: تعريف التجديد الحضاري وموقع الرؤية الكونية الإسلامية منه.

أولا: تعريف الرؤية الكونية الإسلامية وغاياتها الكبرى

في الحقيقة يشكل موضوع التصور الكوني أو المذهبية الكونية أو المرجعية العليا أو الأنموذج الكوني أو الرؤية الكونية واحدا من أهم الموضوعات التي تشغل بال الباحثين من مختلف التخصصات. ويعتبر موضوع التصور الكوني مهما، ليس فقط من أجل البحث والدراسة الأكاديمية النظرية الصرفة ولكن كذلك من أجل الممارسة والعمل بتوجيهات هذه التصورات الكونية. فأتباع الأديان والملل والنحل والأيديولوجيات المختلفة يحاولون جاهدين لتقصي الحقائق والمبادئ والتوجيهات الكبرى التي تتضمنها رؤاهم الكونية وتصوراتهم الحياتية. وقد زاد الاهتمام كثيرا في الآونة الأخيرة بموضوع الرؤية الكونية؛ حيث أصبح يُناقش على مختلف الأصعدة وخاصة مع التأثيرات الخطيرة والعميقة التي تتركها حركة عولمة[٥] العالم على الأديان والثقافات. فقد رجع كل صاحب دين أو ملة أو أيديولوجية أو تصور كوني إلى تصوره يبحث فيه عن المخرج من العولمة والمخرج من المأزق الحضاري العالمي المعاصر الذي توضع فيه البشرية جميعا

---

[٥] أنظر للتفصيل حول تأثير العولمة على الدين والثقافة والمجتمع:
Peter Beyer, *Religion and Globalization*, First Edtion, (London: Sage Publications, ١٩٩٤), Alan Scott (Ed.), *The Limits of Globalization: Cases and Arguments*, First Edition, (USA: Routledge, ١٩٩٧), Malcolm Waters, *Globalization*, First Edition, (London and New York: Routledge, ١٩٩٥) and Barbara Adam, Ulrich Beck and Joost Van Loon (Ed.), *The Risk Society and Beyond*, First Edition, (London: Sage Publications, ٢٠٠٠).

في لحظات الحرج والأزمة الشاملة. فدراسة الرؤية الكونية أصبحت من المداخل الأساسية لحماية الأديان والثقافات وكذلك للحوار الديني وللتعارف الحضاري وللنظر في قضايا وشؤون الإنسان المعاصر. وأهم من ذلك كله — خاصة في وضع الأمة الإسلامية وحالها – فإن الرؤية الكونية تصبح مفتاحا أساسيا ومدخلا جوهريا لمن يريد أن يخوض عملية التجديد الحضاري بصورة منهجية موجهة ومنظمة. والرؤية الكونية تعد بمثابة القوة والمقوم والدافع والموجه والمرشد والممنهج والمعدل لكامل النشاط التجديدي والفعل التغييري الذي يحاول المجتمع القيام به من أجل الخروج من وضع التخلف والاختلال إلى وضع التطور والانسجام.

ومن هذا الباب فإن دراسة الرؤية الكونية الإسلامية بصورة خاصة والرؤى الكونية الآخرى بصورة عامة يعد من الأولويات الكبرى لحركة الوعي والفكر الإسلامي المعاصر عامة ولحركات التجديد والتغيير بصورة خاصة. ولأهمية الرؤية الكونية ودورها المهم في التجديد الحضاري وفي التغيير الاجتماعي وفي البناء الثقافي للفرد والمجتمع فإن دراستها تصبح من قبيل الواجب الذي لا يتم الواجب إلا به. وقبل أن نقوم بدراسة مسهبة للرؤية الكونية الإسلامية وموقعها في التجديد الحضاري الإسلامي المعاصر سنحاول تقديم تعريف للرؤية الكونية الإسلامية.

ومما لا شك فيه أن الدين الإسلامي إلهي المصدر وعالمي التوجه والخطاب واستخلافي الغايات والأهداف وحضاري المشروع وكوني المنظور والرؤية. فالدين الإسلامي دين رباني أصيل يتوجه بالخطاب والدعوة لكافة الناس ولجميع الأمم والشعوب بدون استثناء ويتغي تحقيق أعلى مراتب الترقي في الاستخلاف والعبودية لله سبحانه وتعالى ويعمل على بناء حضارة إسلامية تقوم على أسس التوحيد وتعاليم الوحي الأعلى. ولهذا فعندما نتحدث عن الإسلام فإننا لا نتحدث عن أي دين من

الأديان السماوية المحرفة والمبدلة مثل: اليهودية والمسيحية ولا نتحدث عن الأديان البشرية الصنع والوضع مثل: البوذية والهندوسية والكنفوشيوسية ولا نتحدث عن الأديان الوضعية والملل والنحل والإيديولوجيات المختلفة والمنتحلة من قبل الناس مثل: المادية والوضعية والعلمية والروحية وغيرها. فالإسلام دين يشتمل على رؤية كونية موحاة لها من الخصائص والصفات والمميزات ما يجعلها أصح وأعمق وأسلم وأنسب دين للإنسان مهما كان توجهه وتصوره الحياتي.

ولكي نقوم بتقديم دراسة وافية لهذه الرؤية الكونية الإسلامية وموقعها في التجديد الحضاري الإسلامي المعاصر ينبغي لنا أن نحدد مفهوم الرؤية الكونية عموما والرؤية الكونية الإسلامية على وجه الخصوص، وكذلك أهم غايات الرؤية الكونية الإسلامية. وفيما يأتي بيان للنقاط الآتية:

أ – تعريف الرؤية الكونية الإسلامية

ب– غايات الرؤية الكونية الإسلامية

أ– تعريف الرؤية الكونية الإسلامية (The Islamic Worldview)

لقد اشتغل الكثير من علماء المسلمين القدماء والمعاصرين بموضوع الرؤية الكونية الإسلامية وقاموا بإبانة الكثير من مفاهيمها ومقوماتها وخصائصها. وقد استخدام علماء المسلمين تسميات متنوعة للدلالة على مفهوم الرؤية الكونية الإسلامية ومن الألفاظ والمصطلحات التي استخدمت للدلالة على هذا المفهوم هي: التصور الإسلامي المذهبية الإسلامية الرؤية الكونية المرجعية الإسلامية العليا المحاور الكبرى للقرآن كبرى اليقينيات الكونية النظام الكوني الإسلامي النموذج الكوني الإسلامي أساسيات الثقافة الإسلامية الخطاب الكوني الإسلامي والمنظور الكوني.. وغيرها من المصطلحات المعبرة

في عمقها عن حقيقة الرؤية التوحيدية وتصورها للحياة والكون والإنسان. وقد عكس لنا أحد المثقفين المعاصرين مسألة استخدام المصطلح للتعبير عن موضوع الرؤية الكونية في قوله :"وأما مصطلح التصور الإسلامي فعلى الرغم من عدم انتهائه إلى الوضع المضطرب الذي انتهى إليه "الفكر الإسلامي" غير أنه يمكن أن يورد عليه اعتراض فيقول القائل: التصور هو الكلام الخبري الذي يحتمل الصدق والكذب فهو يعد أيضا من حركة الفكر البشري. وأما مصطلح "نظام الإسلام" فهو مصطلح عام غير محدد فهو قد يطلق على الكليات كما يمكن أن يطلق على الجزئيات أي يمكن عن أن يعبر عن كليات المسائل الإسلامية في الوجود ويمكن أن يعبر عن تفاصيل الأنظمة الجزئية في التشريع الإسلامي كالنظام السياسي والنظام الاجتماعي والنظام الاقتصادي والنظام التربوي وهكذا. لقد كانت هذه الأمور كلها نصب عيني أفكر فيها عندما استمعت إلى محاضرة الدكتور محمود أبو السعود رحمه الله في مؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقد بالرياض عام ١٩٧٧م بعنوان "المذهبية الاقتصادية الإسلامية" عرض فيه ما ثبت بالوحي الإلهي قرأنا وسنة في بيان نظرة الإسلام إلى أسس الاقتصاد السليم. فكرت بعد عودتي أنه من المناسب أن أنقل هذا المصطلح الجديد من مجاله الخاص إلى مجاله العام. وهكذا بدأت أستعمل "المذهبية الإسلامية".. وأنا أريد من هذا المصطلح ما ذهب إليه الإسلام في شؤون الكون وخالقه والنبوة والمجتمع والإنسان واليوم الآخر بمقابلة الأيديولوجية الغربية التي تبحث في أفكار القوم هناك في عين تلك الأمور ولكن بمنظار بشري."[٦]

---

[٦] محسن عبد الحميد **تجديد الفكر الإسلامي** الطبعة الأولى (فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٦) ص ص ٣٨-٣٩.

وبغض النظر عن تعدد المصطلحات ومدى دقتها أو شمولها للمعنى المراد بيانه فإننا اخترنا تسمية **الرؤية الكونية الإسلامية** لتكون التعبير الأساسي عن حقائق الإسلام ومبادئه ومقوماته وتصوراته الكونية الوجودية والأخلاقية الشاملة لقضايا وموضوعات الإنسان والحياة والكون والتاريخ. وقبل تقديم تعريف إجرائي للرؤية الكونية الإسلامية سنعمد إلى تعريف الرؤية الكونية عامة وبيان عناصرها ومكوناتها الأساسية.

١ – تعريف الرؤية الكونية من منظور غربي

وقد ذهب أحد الباحثين الغربيين إلى تعريف الرؤية الكونية على أنها ذلك الإطار المرجعي الشامل لأساسيات عقائد الفرد حول الأشياء والعلاقات القائمة بينها. فالرؤية الكونية تعالج المعتقدات الأساسية وليس مجرد المعتقد –أي– ما نؤمن بأنه مهم حول العالم وليس أي شيء حول العالم. إن الرؤية الكونية تساعدنا على فهم العالم من حولنا وكذلك تجربتنا وخبرتنا وواقعنا. والرؤية الكونية هي التعبير أو الوصف اليومي والمعتاد للعالم الذي يصوغ ويرشد حياتنا ويعيننا على فهم وتفسير واكتشاف كل شيء في العالم بما فيه وجودنا نحن فيه. وذهب باحث آخر إلى القول بأن الرؤية الكونية تعني الفهم أو التصور الشخصي للواقع والحياة والخبرة البشرية. والرؤية الكونية تعالج قضايا وموضوعات أساسية مثل: قضية وجود أو عدم وجود قوة خارقة أصل الكون والحياة الإنسانية مصدر القيم والأخلاق وقضية ما هو معتبر حسن أو قبيح معنى الحياة والموت. ويبين لنا باحث آخر البعدين الأنطولوجي والأخلاقي القيمي للرؤية الكونية في قوله: "أن الرؤية الكونية تعالج نوعان من القضايا؛ أولا القضايا الأنطولوجية الوجودية المتصلة بالخلق وطبيعة الله والإنسان والكون والحياة. وثانيا القضايا الأخلاقية

القيمية الخاصة بالخير والشر والقبح والحسن والخطأ والصواب وصلتها بالاجتماع البشري والواقع. ومن هذه التحديدات تظهر لنا الرؤية الكونية على أنها جمع لجملة مفاهيم مترابطة ومتماسكة تساعدنا على بناء صورة كلية شمولية حول العالم وأن نفهم كل عناصر تجربتنا وخبرتنا ضمن هذا التصور. وهنا نجد الكثير من الباحثين الآخرين يقصدون بالرؤية الكونية تجميع لجملة معتقدات وتصورات حول بعض المفاهيم الأساسية للواقع الذي يؤثر في سلوكنا وتفكيرنا وفعلنا. فالرؤية الكونية هي التصور الشمولي لعلاقتنا الشخصية بالعالم المحيط بنا. إنها بصورة بسيطة توجه وغاية. وذهب باحث غربي آخر بأن الرؤية الكونية هي ذلك الإطار المرجعي الذي به يمكن أن نعرف ونفهم كل شيء يُعرض علينا أو نقوم بممارسته. إنها خريطة الواقع ونموذج العالم. ويذهب باحث غربي إلى القول بأن الرؤية الكونية هي البنية الفكرية التي تحل كل مشكلات تجربتنا على أساس فرضية صلبة لا تترك أي مجال لأسئلة دون إجابات والتي فيها نجد المكان المناسب لأي شيء يهمنا ويفيدنا. ومن هنا فالرؤية الكونية تعتبر بمثابة الطريقة المنظمة التي بها تتصور جماعة من الناس العالم المحيط بهم وهي كذلك فرضياتهم وأفهامهم الأساسية حول العالم وعلاقة الإنسان به. ويرى باحث آخر أن الرؤية الكونية هي صورة من صور التفكير وهي أشمل موقف أو تصور نحو الحياة. ويعرف متخصص أخر الرؤية الكونية بقوله: أنه وراء الأنساق المرئية والملاحظة للثقافة الإنسانية يبدو أن هناك بعض الفرضيات حول الطريقة التي وضع بها العالم متناسقا. بعض هذه الفرضيات تسمى المسلمات الوجودية وهي تعالج قضايا طبيعة الواقع وتنظيم الكون وغايات وأهداف الحياة البشرية. وآخرى تهتم بالقيم والنماذج والتفريق بين الخير والشر والخطأ والصواب. بعض هذه المسلمات تظهر جلية في معتقدات وأساطير

الناس. ويعرف أخر الرؤية الكونية بقوله: أنها طريقة الناس في اختيار وتصنيف وبناء الواقع وهي تهتم بالجوانب المنطقية للاعتقاد. [٧]

من هذه التعاريف المختلفة يمكننا أن نحدد التساؤلات الكبرى التي تحاول الرؤية الكونية معالجتها ودراستها وهي:

- ما الذي يعطي معنى لحياتي؟ هل لحياتي غاية؟ ماذا يحدث لي بعد مماتي؟ من خلق الكون وكيف بدأ هذا الكون؟
- كيف كان هذا الكون قبل خلقه؟ كيف جئنا نحن البشر إلى هذا العالم؟ ما هو الحسن وما هو القبيح؟
- كيف ينبغي لي أن أعامل الآخرين؟ كيف ينبغي لي أن أعيش حياتي؟ كيف أعرف؟
- لماذا يعاني الأبرياء؟ ماذا ينبغي لي أن أقوم به إزاء المجاعة أو الحرب؟
- ما هو المقبول فيما يتعلق بالقيم الجنسية والعراء؟
- من أنا؟ ما هي طبيعة ومهمة وأهمية الإنسان في العالم؟
- أين أنا؟ ما هو مصدر الحياة والطبيعة؟
- ما هي طبيعة العالم؟ كيف بني العالم وكيف يعمل؟
- لماذا عالمنا بالصورة التي هو عليها الآن وليس غيرها؟
- لماذا نشعر بالصورة التي نشعر بها الآن وليس بصورة مغايرة؟
- ما هي المبادئ الأساسية التي ينبغي أن ننظم أفعالنا على وفقها؟

---

[٧] Most of these definitions are quoted from the following Internet sources: www.engr.orst.edu/~funkk, www.forerunner.com, www.mc.maricopa.edu, www.reformed.com, www.origins.org, http://homepage.ihug.co.nz.

- ما هو المستقبل والمصير المفتوح لنا في هذا العالم وبعد مغادرتنا لهذا العالم؟
- ما هو التصور أو النموذج المناسب لنا كبشر في هذا العالم؟

وقد تطورت رؤى كونية كثيرة في العالم كلها تحاول تقديم الإجابات المناسبة لهذه التساؤلات الكلية. ونستطيع في هذا المقام أن نميز مثلا بين الرؤية الكونية العلمية والوضعية والمادية والروحية الحديثة والوجودية وغيرها. ولكي تتضح لنا حقيقة بعض هذه الرؤى سنحاول فيما يأتي التعريف بمجموعة منها بقصد محاولة الوصول إلى تعريف موضوعي يتناسب وحقيقة الرؤية الكونية الإسلامية.

أ) الرؤية الكونية العلمية (Scientific Worldview)

وهي الرؤية التي تجعل من العلم ومعطياته وأدواته أساسا لتفسير الظواهر الفاعلة في الكون والحياة والإنسان. فالعلم كما تطور في ظل التصور الكوني الغربي هو المصدر الوحيد الذي يتيح لنا تقديم تصورات صحيحة ومتناسقة حول الظواهر التي تقوم في الوجود. فما عدا العلم ونظرياته ومناهجه، فإنه لا يمكن الثقة في أي مصدر آخر ليقدم لنا التفسيرات المناسبة لما يدور حولنا في هذا العالم. فعلى وفق الرؤية الكونية العلمية فإن العلم هو "الإله" الحق الذي يفسر لنا كل شيء في الوجود. وإذا عجز العلم عن ذلك فإنه لا يوجد هناك أي مصدر آخر يمكن أن يحل محله في تقديم هذه التفسيرات وبالتالي فعلى العقل البشري أن يحاول ويعيد المحاولة، ويستخدم كل الأدوات العلمية ليصل إلى الحقيقة وليفسر الظواهر بعيدا عن الخرافات التي تأتي بها الأديان والثقافات المختلفة.

وأهم المفاهيم في الرؤية الكونية العلمية[٨] يمكن اختصارها في ثلاثة مفاهيم تشكل أساسها وهي:

١) النزعة الإمبريقية وتعني أن نخضع كل شيء للاختبار والتحليل. فكل ما لا يمكن إخضاعه للتحليل والدراسة المخبرية الإمبريقية فهو يخرج بطبيعته عن النظرة العلمية الموضوعية. والرؤية الكونية العلمية تحاول أن تجيب كل أسئلتنا الخاصة بالكون والحياة والإنسان عن طريق الدراسات الإمبريقية.

٢) العقلانية أو التفكير المنطقي العقلاني ويعني هذا استخدام كل أدوات التفكير المنطقي والتفكير العقلاني الذي قوامه العقل وأدواته ووظائفه من أجل تقديم التفسيرات والإجابات عن التساؤلات النهائية التي يثيرها الناس.

٣) الشك العلمي أي أنه لا تأخذ الأمور كحقائق نهائية ولكن تأخذ دائما بمنطق الشك العلمي المتواصل. فكلما قدمنا تفسيرا لظاهرة ما ينبغي لنا أن نثير الشك حول هذا التفسير ونحاول البحث عن تفسير آخر وهكذا تستمر العملية بصورة متواصلة. فالنزعة الشكية في الرؤية الكونية العلمية أساس ضروري لنمو العلم وزيادة المعرفة واستمرار العقل في البحث والكشف.

---

[٨] أنظر: روبرت أغروس وجورج ستاسنيو **العلم في منظور الجديد** ترجمة: كمال خلايلي كتاب عالم المعرفة رقم: ١٣٧ السنة: ١٩٨٩.

وتحاول الرؤية الكونية العلمية أن ترسخ في مناهج البحث العلمي مجموعة خطوات أساسية يتقوم بها البحث العلمي الموضوعي المقبول. ومن هذه الخطوات التي ينبغي أن يتبعها الباحثون إن هم أرادوا الوصول إلى نتائج علمية موضوعية نذكر:

١) محاولة تحديد المشكلات والتساؤلات عن طريق الحس والملاحظة المباشرة. فكل ما لا يدخل تحت الحس والملاحظة فإنه يفتقر إلى المدخل الأساسي للتفكير العلمي الموضوعي الذي تتبناه الرؤية الكونية العلمية.

٢) وضع الفرضيات الأساسية التي يمكن اختبارها ويمكن أن تشكل أجوبة مفتاحية لتقديم تفسيرات للظواهر المدروسة.

٣) جمع المعطيات والمعلومات الضرورية والأساسية في تفسيرنا للظواهر.

٤) اختبار الفرضيات ومعالجة مدى قدرتها على تقديم التفسيرات الصحيحة والمناسبة للتساؤلات والمشكلات والظواهر. ففي حالة كون الفرضية المختبرة صائبة وتقدم تفسيرا مناسبا فإننا نحافظ عليها ونتقدم في البحث إلى الخطوة اللاحقة ولكن في حالة فشل الفرضية وعدم قدرتها على الصمود أمام الاختبار فإننا إما أن نرفضها أو نعدلها أو نغيرها ونعيد الاختبار من جديد وهكذا في كل مرة.

٥) إذا كانت الفرضية صحيحة وتقدم لنا تفسيرا أوليا مقبولا فإننا نواصل الاختبار ونحاول الوصول إلى التعميم الذي يقودنا إلى بناء النظرية العلمية التي تقدم لنا تفسيرا متناسقا وموضوعيا للظاهرة محل البحث.

٦) فإذا تمكنت هذه النظرية العلمية من تقديم التفسير المناسب وتم تعميم هذا التفسير على حالات آخرى مشابهة فإننا نستطيع أن تتطور إلى حقيقة علمية.

٧) هذه الحقائق العلمية يمكنها أن تصمد لبعض الوقت أو لفترات طويلة فإذا ما عجزت عن الاستمرار وتقديم التفسير المناسب فإن عملية الشك العلمي تبدأ من جديد ونعود إلى الدورة مرة آخرى بحثا عن التفسيرات.

إن المتأمل في مختلف العلوم الطبيعية وحتى العلوم الإنسانية والاجتماعية الغربية المعاصرة يجدها في مجملها متأثرة أو بالأحرى مطبقة لمنطق الرؤية الكونية العلمية. وعلى الرغم من أهمية بعض عناصر الرؤية الكونية العلمية مثل حثها على الاختبار والملاحظة والبحث عن النظريات إلا أنها تعاني من نقص جوهري أساسي متصل بطبيعتها وتشكيلها الذاتي وهو اختصارها الحقيقة والواقع في الواقع المحسوس والملاحظ وهذا تجاوز خطير في حق مفهوم الواقع ومفهوم الإنسان ومفهوم الوجود. فهي تسقط من اعتبارها العالم الغيبي والعالم الروحي والعلم الإنساني ولا تعتبر أن الوحي يمكن أن يشكل مصدرا أساسيا للتفسير العلمي الموضوعي للظواهر.

ب) **الرؤية الكونية المادية**[٩] **(Materialistic Worldview)**

وهي الرؤية الكونية التي تعتبر أن الوجود والعالم كله عالم مادي. فلا يوجد وراء العالم المادي شيء يمكن اعتباره. فالواقع الحقيقي هو الواقع المادي وما عداه فهو العبثية والفوضى. فكل التفسيرات والتصورات التي يمكن أن يمتلكها الإنسان حول الكون والحياة والواقع هي تصورات مادية في أساسها. فالواقع هو الواقع المادي المرئي المحسوس والمشهود. فكل ما يقدم لنا نفعا ماديا من طاقة وقوة ومال وخيرات ومصادر

---

[٩] روبرت أغروس **العلم في منظوره** الجديد ص ١١٤ وما بعدها.

ومنافع هو الواقع المطلوب وما عداه فلا حاجة للإنسان له. فكل شيء ينبغي أن يخضع للحساب والقياس والمعيار المادي لكي يكون مقبولا في ظل مقولات الرؤية الكونية المادية. وفي ظل هذا التصور فالعالم والواقع يقاس كميا وعلى وفق المناهج الرياضية والكمية التي تطورت تحت تأثير النظرة العلمية التي أشرنا إليها سابقا. والحياة نفسها على وفق الرؤية الكونية المادية تقاس بالمنطق المادي وبالحساب الكمي وبالنفع المادي الذي يمكن أن تعطيه للإنسان. فالرؤية الكونية المادية لا تعطي أي اعتبار لموضوعات من أمثال: القيم والأخلاق والروح والوجدان والوحي والدين والغيب والوعي والزهد والتصوف..ولا يوجد شيء إلا المادة. ولا يوجد هناك إله. ولا أحد يعيش خارج هذا العالم المادي المحسوس. ولا يوجد هناك موت. ولا توجد هناك عوالم غير مادية. ولا غاية نهائية وقصد غائي للوجود والحياة.

ومن أهم خصائص الرؤية الكونية المادية[١٠]: ١) هي نظرة كونية مادية أحادية التصور للوجود الإنساني المتعدد. ٢) تستخدم أدوات الرؤية الكونية العلمية لتفسير الظواهر. ٣) تنبني على النظرة الكمية الإحصائية القياسية الرياضية للواقع. ٤) كل الواقع والوجود والحياة يمكن أن يفسر عن طريق العوامل المادية. ٥) لا يوجد موقع للغيب والدين في التصور الكوني المادي. ٦) المادة تخلق نفسها بنفسها.

---

[١٠] Masudul Alam Choudhury, *The Islamic Worldview: Socio-Scientific Perspective*, (London & New York: Kegan Paul International Limited, ٢٠٠٠), p ٧.

ج) الرؤية الكونية الروحية الحديثة (Spiritualism)

وتعرف الرؤية الكونية الروحية الحديثة على أنها علم وفلسفة وديں. فهي علم لأنها تحلل وتدرس الظواهر من منظور علمي موضوعي. وهي فلسفة لأنها تدرس قوانين العالم المادي المحسوس في عالم الشهادة والغيب معا. وهي دين لأنها تحاول أن تفهم قوانين العالم الطبيعي والروحي. ولا تؤمن الرؤية الكونية الروحية الحديثة بالدين كمصدر للهداية والمعرفة. فلا تؤمن مثلا أن الإنجيل يمكن أن يقدم أجوبة على تساؤلات الناس ومشكلاتهم. فالمصدران الوحيدان اللذان يقدمان تفسيرات موضوعية حول عالم الطبيعة والغيب هما العلم والفلسفة.

ومن أهم مبادئ هذا التصور الكوني: ١) الإيمان بوجود قوة ميتا-واقعية ذكية تحكم العالم. ٢) الظواهر الموجودة في العالم الطبيعي والعالم الروحي هما نتاج هذه القوة المقدسة والمتعالية. ٣) حياة الإنسان تستمر بعد الموت. ٤) الإيمان بأن الاتصال مع الموتى والحوار معهم حقيقة واقعة. "يقولون بأنهم يحضرون الأرواح ويستدعون الموتى لاستفتائهم في مشكلات الغيب ومعضلاته والاستعانة بهم في علاج مرضى الأبدان والنفوس والإرشاد عن المجرمين والكشف عن الغيب والتنبؤ بالمستقبل. ويزعمون أن هذه الأرواح تساعدهم في كشف الجرائم والدلالة على الآثار القديمة كما يدعون أنهم يعالجون مرضى النفوس من هذه الأرواح كذلك. ويدعون أنهم يستطيعون التقاط صور لهذه الأرواح بالأشعة تحت الحمراء"[١١] ٥) كل فرد في هذا العالم هو المسؤول عن خلق سعادته أو شقاوته بنفسه. ٦) إن مغفرة الله دائما مفتوحة في هذا العالم وفي الآخرة كذلك. ٧) إن النبوة صفة ووظيفة مقدسة تعطى من قبل تلك القوة الروحية المقدسة

---

[١١] مانع حماد الجهني **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة** الطبعة الثالثة المجلد الثاني (الرياض: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ١٤١٨هـ) ص ٨٤٧.

للناس من المصطفين. ٨) لا يوجد هناك نار أو جنة. ٩) الرب هو أبونا. ١٠) كل البشر أخوة. فهم" يلوحون بشعارات براقة كالإنسانية والإخاء والحرية والمساواة."[١٢]

ومن أهم أهداف أصحاب هذه الرؤية الكونية الروحية الحديثة: ١) تعليم الناس مبادئ وتعاليم الحركة الروحية الحديثة. ٢) تعليم الناس العلم والفلسفة والدين الخاص بهذه الحركة الروحية الحديثة. ٣) الاحتجاج ضد أي دعوة تدعو الناس لعبادة الإله بأي صورة أو شكل من أشكال العبادة. ٤) نصرة كل فرد يؤمن بالتصور الكوني للحركة الروحية الحديثة.

د) الرؤية الكونية الوضعية[١٣] (Positivism)

وتعني تلك الرؤية أو الفلسفة الكونية التي تعترف بوجود مصدر واحد للمعرفة اليقينية ولتفسير حركة الوجود وهو العقل. أي أن الوضعية تفسر مختلف الظواهر عن طريق الحس والتجربة والعقل. فلا يوجد هناك وراء الحس والعقل والتجربة ما يستطيع أن يقدم لنا شيئا معتبرا في تفسير الظواهر. فلا يوجد مجال لمصادر آخرى للمعرفة مثل الوحي والوجدان. ومن أهم مبادئ هذه الرؤية ١) الواقع المعتبر هو ذلك الواقع المحسوس الذي يدخل تحت الملاحظة والاختبار والتجريب. ٢) لا يوجد هناك موقع ودور للدين في العملية المعرفية. ٣) المجتمع لا يستطيع التطور والتقدم إلا في ظل سيادة الفكر الوضعي. الدين عائق لتطور الوعي الإنساني. ٥) تقسم الرؤية الوضعية التطور البشري إلى ثلاثة مراحل –كما تحدث عنها أوجست كونت– من المرحلة اللاهوتية

---

[١٢] الجهني **الموسوعة الميسرة** ج٢ ص ٨٤٨.

[١٣] أنظر: محمد عابد الجابري **مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي** الطبعة الأولى (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٩٤) ص ٢٥ وما بعدها.

إلى المرحلة الميتافيزيقية ثم إلى المرحلة الوضعية. وفي الخلاصة "فإن المذهب الوضعي مذهب فلسفي ملحد يركز المعرفة اليقينية في الظواهر التجريبيه وينكر وجود معرفة مطلقة ويقول أن التقدم الإنساني بدأ من العلوم الطبيعية وبدأ ينتقل للعلوم الا.ء ماعية وأن العقل البشري يتقدم من المرحلة اللاهوتية الدينية إلى المرحلة الميتافيزيقية لكي يصل في النهاية إلى المرحلة الوضعية التي هي قمة التخلي عن كل العقائد الدينية."[١٤] بجانب الوضعية يمكننا أن نذكر بعض التصورات الآخرى الشبيهة بها مثل: **العقلانية** التي تعتبر مذهبا فكريا يستند إلى المبادئ الآتية: ١) "العقل لا الوحي هو المرجع الوحيد في تفسير كل شيء في الوجود. ٢) يمكن الوصول إلى المعرفة عن طريق الاستدلال العقلي وبدون اللجوء إلى أية مقدمات تجريبية. ٣) عدم الإيمان بالمعجزات أو خوارق العادات. ٤) العقائد الدينية ينبغي أن تختبر بمعيار عقلي."[١٥]

ولمزيد من التوضيح حول حقيقة الرؤية الكونية الغربية [١] ومضامينها الكبرى نثبت النص الآتي: "تملأ عقلية الإنسان الغربي ستة أفكار أساسية تشكل عالم النيب في داخله وتنطلق منها كل مواقفه الفكرية والفعلية ويلخصها شوميتشر كما يلي: أولا: فكرة التطور..صور عليا للحياة تتطور من صور دنيا بطريقة طبيعية وذاتية. ولا يقتصر التطور على الماديات بل يشمل كل المعنويات مثل اللغة والدين والقيم.. ثانيا: فكرة التنافس والاختيار الطبيعي والبقاء للأنسب وهي فكرة تؤيد وتدعم فكرة التطور وحدوثه بطريقة طبيعية وذاتية ولقد آلت فكرة البقاء للأنسب إلى فكرة البقاء

---

[١٤] الجهني المرجع السابق ج٢ ص ٨٢٣.

[١٥] المرجع نفسه ج٢ ص ٨٠٧.

[١٦] أنظر: كرين برنتن **أفكار ورجال: قصة الفكر الغربي** ترجمة: محمود محمود (القاهرة: مؤسسة فرانكين للطباعة والنشر ١٩٦٥).

للقوى..ثالثا: فكرة ماركس في صراع الطبقات وأن كل المظاهر العليا للحياة مثل الدين والفن والفلسفة ما هي إلا مجموعة أوهام في عقول الرجال تخفي وراءها مآرب اقتصادية. رابعا: فكرة فرويد التي تفسر كل المظاهر العليا في الحياة كنتيجة لما ترسب في العقل الباطن من رغبات مكبوتة في سن الطفولة والمراهقة لإتيان المحارم. خامسا: فكرة النسبية منكرة كل مطلق..هادمة كل المقاييس والمعايير..سادسا: فكرة الوضعية والتي تقول أن المعرفة الحقة هي التي يمكن الحصول عليها بطرق العلوم الطبيعية وعلى هذا لا يمكن تبدل المعرفة إلا إذا كانت قائمة على حقائق المشاهدة وحدها."[١٧]

٢- ملاحظات منهجية حول التعاريف الغربية للرؤية الكونية

إن هذه التحديدات والتعاريف المختلفة للرؤية الكونية مهمة لتصورنا لمفهوم الرؤية الكونية والقضايا الأساسية التي ينبغي أن تعالجها. وعلى الرغم من اختلافنا في التصور مع هذه التعاريف إلا أننا نعتبرها مساعدة لتشكيل مفهوم أصيل للرؤية الكونية من منظور إسلامي. ولكي نقوم بتصفية أولية لمفهوم الرؤية الكونية نضع الملاحظات الآتية حول التعاريف والرؤى الكونية السابقة:

أولا: أن الرؤية الكونية ينبغي أن تستوعب بصورة شمولية كلية ودقيقة عالم الغيب وعالم الشهادة باعتبارهما حقيقتان كونيتان أساسيتان لفهم العالم والوجود. فإسقاطنا لقضايا الغيب الأساسية أو الحديث عنها بصورة مختزلة أو غامضة أو غير منظمة سيؤدي إلى تفسير خاطئ لعالم الغيب؛ وبالتالي يضيع معناه ولن ندرك حقيقته ومقاصده. وكذلك حديثنا عن قضايا عالم الشهادة فإنه ينبغي أن يكون شاملا كليا

---

[١٧] نقلا عن: سيد دسوقي حسن **مقدمات في البعث الحضاري** الطبعة الأولى (الكويت: دار القلم ١٩٨٧) ص ص ٢٩-٣٠.

عاما لا يختزل وجود عالم الشهادة ولا ينظر إلى الإنسان والحياة والكون نظرة مادية أو روحية أو جزئية أو تبعيضية أو استعمارية بل ينبغي أن ينظر إلى عالم الشهادة نظرة شمولية كلية استخلافية متناسقة.

ثانيا: أن الرؤية الكونية في حقيقتها لا تعبر فقط عن التصور الشخصي أو عن رؤية كل فرد للعالم فليست الرؤية الكونية مسألة فردية متصلة بحرية الفرد يتبنى ما يشاء لأي وقت يشاء ثم يغير الرؤية الكونية كما يشاء ولأي غرض يشاء. فالرؤية الكونية ينبغي أن تعبر عن نزعة الجماعة ورؤية الأمة في مجموعها. فهي نظام تصوري جماعي لأمة من الناس تجمعهم الرؤية الكونية وتوحد رؤيتهم للعالم؛ بحيث تتناسق حركتهم وأفهامهم مع الرؤية الكونية التي يتبنونها. فالرؤية الكونية رؤية جماعية وليست ضربا من الفردانية والفردية المتغيرة في كل وقت وفي كل ظرف.

وثالثا: أن الرؤية الكونية في حقيقتها تتضمن الإجابات النهائية الصحيحة عن القضايا الأنطولوجية الوجودية الخاصة بالخالق والخلق والكون والحياة والمصدر والمصير وغيرها كما تتضمن الإجابات النهائية الصحيحة عن القضايا الأخلاقية والقيمية الخاصة بالحق والباطل والخير والشر والنفع والضر والصلاح والفساد. ولكن على الرغم من أهمية هذين البعدين الوجودي والقيمي في الرؤية الكونية إلا أننا ينبغي أن نؤكد ضرورة بعد آخر أو قيمة آخرى في الرؤية الكونية وهي البعد الاستخلافي العملي. أي أن الرؤية الكونية عندما تناقش القضايا الوجودية والقضايا القيمية لا ينبغي أن تبقى متعالية عن الواقع وبعيدة عن الممارسات الاستخلافية التي تحول التصورات والأفكار إلى أعمال. وبعبارة أكثر دقة ينبغي أن تكون مناقشات الرؤية الكونية سواء الوجودية أو القيمية مما ينبني عليه عمل ومما يكون له أثر في تحقيق الخلافة والاستخلاف في الأرض. فبهذا المعنى فقط نستطيع أن نضمن غائية ومقصدية

الرؤية الكونية وفائدتها للإنسان باعتباره خليفة الله في الأرض. وهذا هو الذي يعبر عنه علماء الإسلام حين يتحدثون عن القسمات الكبرى للإسلام أي العقيدة (القضايا الوجودية الكلامية) والأخلاق (القضايا القيمية الأخلاقية) والشريعة (القضايا العملية التطبيقية الحكمية).

ورابعا: إن الرؤية الكونية لا ينبغي أن تعتبر فرضيات حول الله والحياة والكون والإنسان كما لا ينبغي أن تعتبر مجرد تخمينات وإجابات افتراضية خاضعة للنقد والتقويم والاختبار وإعادة النظر في كل مرة. فبهذه الصورة تتحول قضايا الرؤية الكونية -كما هو حادث بحق في التصور الغربي اليهودي والمسيحي- إلى قضايا متغيرة ومتأثرة بالواقع وظروفه وأحكامه. إن الرؤية الكونية ينبغي أن تنطلق من حقائق وقوانين ومبادئ لا تقبل التغير والتبدل والاختبار من أجل نفيها أو إثبات خطأها. فالرؤية الكونية ينبغي أن تتضمن إجابات نهائية صحيحة ومستقرة وثابتة عبر الزمان والمكان والواقع. وكونها متعالية ليس من باب المثالية أو من باب تجاوز الواقع الإنساني ولكن من باب أن الرؤية الكونية حقائق ثابتة مستقرة مقررة مبرهنة ,انه من الممكن استخدام أي منهج عقلي أو علمي صحيح لإثبات ذلك. ومن هنا فإننا ضد تحويل الرؤية الكونية إلى جملة فرضيات لا متناهية ومتغيرة على حسب الأوضاع والأهواء.

٣- نحو تعريف للرؤية الكونية[١٨] من منظور إسلامي

وبعد هذه الملاحظات عن بعض التعاريف الغربية لمفهوم الرؤية الكونية نحاول أن نعالج بعض التعارف الإسلامية. فإذا ما جئنا إلى بعض المفكرين الإسلاميين فإننا نجدهم قد عرفوا الرؤية الكونية الإسلامية بتعاريف متنوعة. ويمكننا أن نشير إلى رأيين في هذا

[١٨] See, Choudhury, *The Islamic Worldview*, p. ٩.

السياق. يرى مرتضى مطهري أن الرؤية الكونية تتضمن معنى التصور ولكن ينبغي لنا أن لا نقع في الخطأ الفادح الذي يفسر الرؤية الكونية على أنها عالم الأحاسيس والمشاعر. فالرؤية الكونية تعني عالم المعرفة أو الوجود...ولهذا فعالم المعرفة خارج عن نطاق الأحاسيس والمشاعر الإنسانية وهو في الحقيقة الوظيفة الأساسية لفكره وتأملاته...والرؤية الكونية هي الطريقة التي يفسر بها الإنسان العالم. وهي على ثلاثة أنواع الرؤية الكونية العلمية والفلسفية والدينية.[١٩] ويرى من جهته الأستاذ الدكتور سيد محمد نقيب العطاس أن الرؤية الكونية من الوجهة الإسلامية لا تعني فقط رؤية العقل إلى العالم المادي المحسوس ومشاركة الإنسان في أبعاده التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية كما هو واضح على سبيل المثال في العبارة العربية المستخدمة "النظرة الإسلامية للكون". إنه غير صحيح تماما أن نشير إلى الرؤية الكونية في الإسلام بعبارة النظرة الإسلامية إلى الكون. ذلك لأنه على خلاف ما توحي به لفظة "نظرة" فإن الرؤية الكونية الإسلامية غير مؤسسة على تأملات فلسفية متحصلة فقط من ملاحظة المعطيات المتعلقة بعالم الخبرة المحسوسة أو ما هو مرئي. وهي كذلك غير محددة بالمعروف الذي هو عالم المحسوس أو الأشياء المخلوقة...إن الرؤية الكونية الإسلامية تشتمل على قضايا الدنيا والآخرة. إن الرؤية الكونية في المنظور الإسلامي هي رؤية الواقع والحقيقة التي تظهر لعقولنا موحية لنا حقيقة الوجود ودلالاته..وهكذا فالرؤية الكونية يجب أن تعني رؤية الإسلام للوجود.[٢٠]

---

[١٩] Ayatullah Murtaza Mutahhari, *Fundamentals of Islamic Thought: God, Man and The Universe*, (Berkeley: Mizan Press), pp. ٦٧-٦٨.

[٢٠] Syed Muhammah Naquib Al-Attas, Opening Address: The Worldview of Islam: An Outline, *Proceedings of the Inaugural Symposium on Islam and the Contemporary Context* held at and Organized by the ISTAC,

من كل ما سبق وأخذا بعين الاعتبار الملاحظات التي سبق وأن أبديناها يمكننا أن نقدم التعريف الآتي للرؤية الكونية الإسلامية. فهي ذلك: **الإطار المرجعي الجماعي المستخرج من حقائق الوحي وتعاليمه وهذا الإطار المتماسك والمنظم يتضمن الإجابات النهائية الصحيحة والمتناسقة حول القضايا والتساؤلات الكلية الخاصة بموضوعات: الله والغيب والإنسان والكون والحياة والتاريخ والمستقبل ويرشد وعي الإنسان الخليفة وحركته الاستخلافية إلى العقيدة والشريعة والأخلاق المنسجمة مع سنن الله وقوانينه الكونية الشاملة.**

فالرؤية الكونية الإسلامية بهذا المعنى رؤية ذات مصدر علوي موحى وهي كذلك رؤية جماعة وأمة وليست رؤية فرد كما أنها تقدم الإجابات الصحيحة في صورة حقائق ومبادئ وليست في صورة افتراضات وهي كذلك شاملة لكل قضايا الغيب والشهادة كما أنها متصلة مباشرة بالإنسان الخليفة في الأرض فهي توجه الإنسان إلى العقيدة والشريعة والأخلاق التي تصب مباشرة في مصب الاستخلاف بما يتضمنه هذا المفهوم من العبودية لله والسيادة على الكون والاعمار للعالم والتسخير لسنن الله وقوانينه من أجل تحقيق أعلى مراتب الترقي والسمو الروحي والمادي والأخلاقي والعمراني والسلوكي وغيرها.

إن مفهومنا للرؤية الكونية الإسلامية ينبغي أن يكون شموليا ومتكاملا اذ عليه أن يتضمن حقائق الاعتقاد والوجود وحقائق التشريع والمنهج وحقائق الأخلاق والقيم وحقائق الاستخلاف الكبرى بكل أبعادها المعرفية والوجودية والمنهجية والحضارية.

Kuala Lumpur, August ١-٥, ١٩٩٤, Edited by Sharifah Shifa Al-Attas, pp. ٢٥-٢٦.

ب- غايات الرؤية الكونية الإسلامية

إذا كان تعريف الرؤية الكونية الإسلامية بهذا المعنى العميق والأصيل والمرتبط أصلا برسالة الإنسان كخليفة لله رب العالمين فإن غايات هذه الرؤية غايات سامية وراقية وعظيمة. والمقصود بالغاية لغة "مدى الشئ...وأقصاه ومنتهاه وآخره."[٢١] فالغاية هي النقطة النهائية والموطن والمستقر الأخير الذي ينتهي إليه الشيء أو الأمر. فمدى الشيء قد يتجاوز وعينا وفهمنا وإدراكنا الدنيوي الحالي ويتصل بعالم الغيب أو بعالم الآخرة. فالغاية على هذا ذات أفق ممتد إلى أبعد مدى يمكن أن يصله الوعي البشري ثم يمتد هذا المدى ليصبح في غير مقدور البشر إدراكه أو وعيه لأنه أصبح يتصل بعالم الغيب. فالغاية تربطنا بالعالمين معا عالم الشهادة في هذه الدنيا وعالم الغيب الممتد وراء مدى هذه الدنيا. ومن هنا كانت غايات الرؤية الكونية الإسلامية أوسع مدى من الحياة العاجلة الدنيوية القائمة. بحيث توسعت وامتدت غايات هذه الرؤية فلمست عالم الآخرة وعالم الغيب الذي يعلمه الله سبحانه وتعالى. فالحديث عن **غايات الرؤية الكونية الإسلامية** يؤدي بنا إلى البحث في أقصى ما تصبو إليه هذه الرؤية في عالمي الشهادة والغيب. فغايات الرؤية الكونية الإسلامية هي" مقاصدها العليا في الخلق عاجلا وآجلا ومراميها البعيدة على مستوى عالمي الشهادة والغيب."[٢٢] فغاية الرؤية الإسلامية تسجل لنا على محور الزمن والتاريخ مجموعة معالم ودلائل وقيم عليا وكبرى ترنو إليها النفوس وتتوجه إليها العقول وتصبو إليها الجماعة المسلمة. فغاية الرؤية الكونية

---

[٢١] أنظر: الرازي **مختار الصحاح** ص ٤٨٨. وأنظر: الطاهر أحمد الزاوي **ترتيب القاموس المحيط** (بيروت: دار الفكر بدون تاريخ) ج٣ ص ٤٣٨.

[٢٢] الطيب برغوث **منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية** الطبعة الأولى (هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٦) ص ٨٠.

الإسلامية تقوم مقام النور البعيد الذي يرسم على طريق الأمة معالم الطريق التي ترشده إلى تحقيق أهدافه وأغراضه ومقاصده في الدنيا.

فإذا كانت الغاية نقطة أو بؤرة يصدر منها النور الذي يوجه حركة الأمة ومسير المسلم إلى مقاصده الدنيوية والآخروية، فإن هذه الغاية عميقة. وخلاصة القول **أن غايات الرؤية الكونية الإسلامية** هي مجموعة معالم ومرامي ومقاصد عليا توصل المسلم بالوحي الإلهي من جهة وتفتح له آفاقا عظيمة للاستخلاف والتحضر والترقي من جهة أخرى. ويلخص لنا مفكر إسلامي غايات الإسلام ودعوته وبالتالي غايات الرؤية الكونية الإسلامية في غايتين مركزيتين هما: "عناية الإسلام بالوجود الإنساني: وظيفة ومصيرا وعنايته كذلك بوظيفة الاستخلاف كهدف استراتيجي للدعوة الإسلامية في عالم الشهادة."[٢٣] ويزيد في بيان حقيقة هاتين الغايتين بقوله :" العناية بالوظيفة الوجودية للإنسان ...والعناية بالمصير النهائي للإنسان...والعناية بوراثة الجنة كغاية نهائية للوجود الإنساني."[٢٤] وأما فيما يتعلق بالغاية الثانية وهي عناية الإسلام بوظيفة الاستخلاف فيذكر أن "العبادة قوام الاستخلاف...والأبعاد الأربعة للمشروع الاستخلافي هي: بعد الترقي المعرفي وبعد الترقي الروحي وبعد الترقي الأخلاقي وبعد الترقي العمراني."[٢٥] وبعد شرح طويل ومفصل يخلص إلى أن "الاستخلاف هو الهدف الاستراتيجي للوجود الإنساني في عالم الشهادة. وأن العبادة هي قوام الاستخلاف وعموده بما يحقق الإنسان خلافته في الأرض عندما يضمن لنشاطه وحركته الإيمان الصحيح والعمل الصالح الفعال. وأن الإنسان لكي يؤدي مهمته الاستخلافية عبادة لله

---

[٢٣] الطيب برغوث **منهج النبي** ص ٨٠.

[٢٤] المرجع السابق ص ٨٠-٨٥.

[٢٥] المرجع السابق ص ٩٠-١٠٨.

وسيادة على الأرض زوده الله تعالى بمؤهلات مادية وروحية تمكنه من فهم رسالته ووعي ذاته وأداء دوره كعبد لله تعالى من جهة وسيد في الأرض من جهة آخرى. وأن الأبعاد الكبرى لمشروع الاستخلاف الذي أنيطت مهمة إنجازه بالإنسان هي: العمل على الترقي المعرفي والترقي الروحي والترقي الأخلاقي والترقي العمراني بصفة دائمة ومستمرة تمكن كل جيل من أجيال الإنسانية من تقديم عطائه الحضاري في سياق القيام بواجبه العبادي الاستخلافي تحضيرا لانتقاله إلى عالم الآخرة حيث وعده الله سبحانه وتعالى بوراثة الجنة إن هو وفق في أداء أمانة التكليف بإخلاص وكفاءة في عالم الشهادة."[٢٦]

من هذه التحديدات يمكننا أن نختصر غايات الرؤية الكونية الإسلامية في:

أولا: **التعريف بالله سبحانه وتعالى** وبيان مطلوب الناس من معرفة الله ومستلزماتها وآثارها في الدنيا والآخرة.

ثانيا: **التعريف بعالمي الشهادة والغيب** وبيان حقيقتهما وطبيعة كل واحد منهما والعلاقة بينهما وحاجة الخليفة في الأرض إلى معرفتهما مع التركيز على التعريف بعالم الشهادة وبالآخرة والحياة والموت والبعث والحساب والعقاب والجزاء والجنة والنار.

ثالثا: **التعريف بحقيقة الإنسان والحياة والكون** وبيان الغاية من الوجود ومصيره.

رابعا: **التعريف بمنهج الوحي** في بيان الحجة والبينات للناس حتى يحي من حي مؤمنا على بينة وعلم ويحي من حي كافرا على بينة وعلم.

---

[٢٦] برغوث **منهج النبي** ص ١١٢-١١٣

خامسا: **التعريف بمسئولية الإنسان الاستخلافية والتعبدية والسيادية ومضمونها الفردي والجماعي والحضاري والعمراني** وكيفية أدائها وفق توجيهات الوحي وانسجاما مع طبائع العمران وسنن الاجتماع وقوانين الحركة البشرية.

سادسا: **التعريف بمعالم تاريخ الدين والنبوة والرسالة** وتاريخ البشرية وبداية الخلق ومصائر الأقوام السابقين واللاحقين وسنن الله فيهم.

فبهذه الغايات الكبرى تصبح الرؤية الكونية الإسلامية متمحورة حول مسائل أساسية في وجود الإنسان ورسالته ومصيره وهي:

١-معرفة الله سبحانه وتعالى.

٢-معرفة عالم الشهادة والغيب

٣-معرفة الإنسان والحياة والكون

٤-معرفة منهاج الوحي في البيان والهداية والتجديد

٥-معرفة المسئولية الاستخلافية للإنسان كمشروع للعبادة والاعمار والتحضر

٦-معرفة تاريخ الدين والرسالة والنبوة وحقيقة الأقوام السابقة في صلتها مع الدعوة والوحي.

وهذه المعرفة الشاملة والصحيحة ينبغي أن تتجسد في مشروع تحقيق الاستخلافي في الأرض وبناء الإنسان الخليفة وتحقيق الاعمار للكون على وفق الرؤية الكونية الإسلامية وتوجيهاتها. وعلى هذا الأساس فإن كل ما يقوم به المسلم من عمل أو نشاط أو جهد وكل ما يمارسه من سلوكيات أو مواقف أو حركات ينبغي أن يكون متصلا بغاية من هذه الغايات أو يحقق مضمونا أو معنى من معانيها. فكل عمل أو فعل أو جهد أو نشاط يتعارض أو يتناقض أو يتصادم مع هذه الغايات الكبرى فهو مردود في منظور الإسلام. والمسلم وهو يسعى ليعيش ويلتزم هذه الغايات ويتفاعل

معها على حسب ظروفه وواقعه ومرحلة حياته يضع الأهداف التي تتناسب وحاجاته ومجتمعه ومشكلاته. ومن هذا المنطلق فإن مسألة التجديد الحضاري الإسلامي المعاصر تجد لها في الرؤية الكونية الإسلامية مرشدا وموجها عظيما.

ثانيا: أساسيات الرؤية الكونية الإسلامية

أ- تصور لأساسيات عالم الغيب الإسلامي

فإذا كانت هذه هي حقيقة الرؤية الكونية الإسلامية وهذه طبيعة غاياتها فإن أساسياتها الكبرى ومبادئها الرئيسة تعكس لنا بصورة قوية عمقها وأصالتها وفطريتها وعالميتها ومدى تفهما للبناء الإنساني والبناء الكوني. كما تكشف لنا عن طبيعة المشروع الحضاري الاستخلافي الذي تحمله للبشرية. وفيما يأتي بيان مختصر لأهم أساسيات الرؤية الكونية الإسلامية سواء كانت الأسس أنطولوجية أو وجودية أو معرفية أو أخلاقية أو تشريعية. وقبل أن نعرض رأينا في المسألة سنثبت تصور أحد الباحثين في مسألة الرؤية الكونية. يقول الدكتور سيد دسوقي: "عالم الغيب في الفكر الإسلامي كما أومن به: ١- الله واحد لا شريك له...له الأسماء الحسنى - لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير (الأنعام: ١٠٢). ٢- غاية الوجود عبادة الله جل وعلا. وتتلخص العبادة في التعبد بالروح والتعبد بالشهوات والتعبد بالجوارح والتعبد بالعقل والتعبد بالاجتماع الإنساني. ٣- العوالم في الكون من حولنا عوالم صديقة..تسبح الله ولا نتعامل معها إلا بالحق. ومعالم هذا الحق هي: وجه الله، الرحمة، القصد والاقتصاد، النفع العام، العلم بسنن الله في الوجود. ٤- معيار الرجال هو التقوى. ومعيار الأعمال هو نفع الناس ومعيار النجاح هو مرضاة الله تعالى في النفس

والناس والكون. ٥- كينونتنا رافد متميز يعرف منه الناس يوم مولدنا ويوم موتنا ونؤمن ببعثنا وحسابنا وجزائنا ونؤمن كذلك أننا سنقبل على الله فرادى وأن أعمالنا ستوزن بدقة إلهية..(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يراه ومن يعمل مثقال ذرة شرا يراه)..(ألا تزر وازرة وزر آخرى). ٦- أدوات البرهان هي العقل والحواس والقلب...فنحن نؤمن بالقرآن من خلال التناسق الداخلي للكتاب والإعجاز المذهل في كافة نواحيه واستلهام القلب. ٧- مسئولية الإنسان في مساحة اختياره..أما سعة المساحة فجبر في علم الله لا نملك منه شيئا."[٢٧]

ب- تصور آخر لأساسيات الرؤية الكونية الإسلامية

وبعد ذكر هذا الرأي القيم في مسألة أساسيات ما سماه المؤلف بالغيب في الفكر الإسلامي نعود لنثبت تصورنا لمقومات الرؤية الكونية الإسلامية في جانبيها الغيبي والشهادي. فأهم أساسيات الرؤية الكونية الإسلامية هي:

١) **مبدأ التوحيد** والإيمان بالله سبحانه وتعالى وما يتضمنه من مسائل خاصة بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

٢) **مبدأ التصديق بالوحدة المصدرية للناس** والحياة والكون. (المصدر المشترك). فالله سبحانه وتعالى هو الخالق الحق لكل شيء . قال تعالى: **{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}** (النساء، ٤: ١). وقال تعالى:

---

[٢٧] دسوقي حسن **مقدمات في مشاريع البعث الحضاري** ص ص ٣٠-٣١.

{الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا} (الفرقان، ٢٥: ٥).

٣) **مبدأ التصديق بوحدة التكليف الإلهي للناس** جميعا برسالة الاستخلاف في الأرض. ويشتمل هذا المبدأ على:

١. الغاية العامة للناس:

قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ} (الذاريات، ٥١: ٥٦).

٢. الابتلاء العام للناس:

قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ} (الملك، ٦٧: ١ــ٢).

٣. التشريع العام للناس:

قال تعالى: { إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} (النساء، ٤: ١٠٥).وقال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ} (المائدة، ٥: ٤٧).

٤. النصرة العامة لعباد الله الصالحين:

قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ} (الصافات، ٣٧: ١٧١ــ١٧٣).

٥. الإظهار الإلهي العام للدين ووراثة الأرض:

قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمْ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ الْغَالِبُونَ} (الصافات،٣٧ :١٧١ــ١٧٣).

قال تعالى: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} (الفتح، ٤٨: ٢٨).وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ} (الأنبياء، ٢١: ١٠٥).

٦. التكريم العام لبني آدم:

قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} (الإسراء، ١٧: ٧٠).

٧. التقوى أساس للمفاضلة بين الناس:

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات، ٤٩: ١٣).

٨. عمومية أصل الإرادة الإنسانية:

قال تعالى: {وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ

كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} (الكهف، ٨: ٢٩).

٩. عمومية المسئولية الفردية على الأعمال والمواقف البشرية:

قال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ آخرى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (الأنعام، ٦: ١٦٤). وقال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه} (الزلزلة، ٩٩: ٨).

١٠. عمومية حرية التدين:

قال تعالى: {مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلأنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} (الروم، ٣٠: ٤٤).

٤) مبدأ وحدة الرزق الإلهي للناس جميعا. فالله هو الرزاق العليم وهو مصدر كل نعمة وخير يصيبه الإنسان أو أي مخلوق في هذا الوجود. قال تعالى :{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (هود، ١١: ٦). وقال تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ} (الذاريات، ٥١: ٢٢).

ويشتمل هذا المبدأ على جملة مسائل هي:

١. تسخير الله للخيرات والمقدرات في الكون المادي للناس جميعاً.

٢. تسخير الله لسننه وقوانينه للناس جميعا. وجعلهم قادرين على اكتشاف هذه السنن والقوانين واستعمالها من أجل الترقي والتقدم المادي والروحي.

٣. تسخير الله للآيات والمعجزات الإلهية في الآفاق والأنفس للناس جميعاً.

٤. وجوب الإنفاق مما أستخلف فيه الناس. قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ} (البقرة، ٢: ٢٥٤). وقال تعالى: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ} (الحديد، ٥٧: ٧).

٥. وجوب العمل والسعي والابتغاء واستعمار الأرض. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} (الملك، ٦٧: ١٥).

٦. وجوب المحافظة على الكون والتناغم معه.

٧. وجوب احترام قوانين الكون المقدرة وسنن الاكتساب والاجتماع الفاعلة.

٥) مبدأ تعليم الله الإنسان الأسماء والقراءة باسم ربك. قال تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ} (البقرة، ٢: ٣١). وقال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ} (الرحمن، ٥٥: ١ــ٢). ويتضمن هذا المبدأ جملة مسائل هي:

١. وجوب التعلم والعلم والاجتهاد كأساس للاستخلاف في الأرض. قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} (العلق، ٩٦: ١ــ٥).

٢. وجوب قيام العلماء والربانيين بدورهم في المجتمع. قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (آل عمران، ٣: ١٨). قال تعالى :{فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} (النحل، ١٦: ٤٣). قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} (المجادلة، ٥٨: ١١).

٣. وجوب تأسيس العلم على التقوى والعمل الصالح.

٤. وجوب الاستفادة من ثمرات العلم ومنافعه عمليا.

٦) **مبدأ السير في الأرض والنظر في أثار الأولين وفي أيام الله فيهم** ويتضمن هذا المبدأ جملة مسائل هي:

١. ضرورة دراسة التاريخ وسننه وقوانينه.

٢. ضرورة وعي قوانين استشراف المستقبل وتسخير العبرة.

٣. ضرورة التراث واستمرار وعي الأجيال به.

٧) **مبدأ مقاصد الشريعة ومصالح العباد** ويتضمن هذا المبدأ جمل مسائل هي:

١. مقاصد الشريعة العامة لمصلحة الإنسان في العاجل والآجل.

٢. الشريعة الإسلامية جاءت للمحافظة على الدين والنفس والعقل والنسل والمال وكل ما يصلح حال الإنسان ويدرأ عنه الفساد.

٣. الشريعة تامة وشاملة لكل ما يحتاج إليه الإنسان والمجتمع.

٤. الشريعة فطرية وعالمية ومحفوظة وواقعية ومعتدلة وميسرة.

٥. الشريعة هي أساس استقامة حياة الناس ويجب تطبيقها في حياتهم.

٦. الشريعة نظام حياة شامل ومنهاج تدين عام صالح لكل زمان ومكان، يشتمل على نظام للعقيدة والعبادة والاقتصاد والمجتمع والسياسة والتربية والحضارة.

٨) **مبدأ الإيمان بوجود عالم الشهادة وعالم الغيب.** ويتضمن هذا المبدأ جملة مسائل هي:

١. عالم الشهادة هو عالم الابتلاء والعمل والكسب والتفاعل والتعارف.

٢. وجوب فناء العالم والمخلوقات وبقاء وجه الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ} (الرحمن، ٥٥ : ٢٥ــ٢٦).

٣. الإيمان بجهل البشر للغيب الإلهي إلا من أعطاه الله السلطان. قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} (الجن، ٧٢: ٢٦ــ٢٧).

٤. وجود عالم الآخرة وأنه حق لا ريب فيه.

٥. وجوب التصديق بعدالة الله المطلقة وأنه لا يظلم عنده أحد.

٩) **مبدأ الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.**

١٠) **مبدأ العدل والحرية والمساواة.**

١١) مبدأ الشورى والتناصح.

١٢) مبدأ الاجتهاد وطلب الحق في كل شيء.

إن هذه المبادئ وغيرها كثير تشكل مفاتيح ضرورية لفهم التصور الإسلامي للحياة وتعين الباحث على معرفة دينه معرفة صحيحة. ولهذه المبادئ العامة تطبيقاتها وآثارهاعلى مختلف أنشطة الحياة الإسلامية ويمكن الاستفادة منها في مجال التجديد الحضاري وبيان حقيقة الإسلام ودعوته.

ثالثا: تعريف التجديد الحضاري وموقع الرؤية الكونية الإسلامية منه

أ- المقاربات المختلفة لمفهوم التجديد الحضاري

قبل أن نقوم بصياغة إجرائية سنعمد إلى تثبيت بعض التعاريف اللغوية والاصطلاحية لمفهوم التجديد. ورد في لسان العرب قوله:" جدد الجدة: نقيض البلى والجديد ما لا عهد لك به."[٢٨] وإذا ما تأملنا التطور الدلالي المعرفي للمفهوم التجديد في النسق اللغوي العربي الإسلامي فإننا لا نجد أكثر مما أورده صاحب اللسان. فلئن شهدت لفظة "التجديد" بعض الحركة والدراسة في مجال الدراسات الحديثية وغيرها من الدراسات الشرعية؛ فإن الوضع بقي على حاله في التحليل اللغوي. فاللفظة لم يحدث فيها تطور دلالي ملحوظ في الجانب اللغوي إلا أنها لقيت بعض التأويلات والتوجيهات وخاصة إذا ما ربطنها بالحديث النبوي الذي وردت فيها اللفظة بصورة صريحة. فكثيرا ما يحرص الباحثون والدارسون عند معالجتهم لمفهوم "التجديد" أن يشيروا إلى ذلك النص

---

[٢٨] ابن منظور **لسان العرب** ج٣ ص ١١١.

النبوي الذي يعتبر نصا تأسيسا لهذا المفهوم. يقول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها أو دينَها).[٢٩] وبالرجوع إلى بعض شراح هذا الحديث نجدهم يلفتون الانتباه إلى معنى التجديد. فمنهم من قال أن التجديد هنا يعني: "إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة والأمر بمقتضاهما."[٣٠] ومنهم من قال أنه يعني: "حدوث جماعة من الأكابر المشهورين على رأس مائة سنة يجددون للناس دينهم ويحفظون مذاهبهم التي قلدوا فيها بمهتديهم وأئمتهم."[٣١] واستنادا إلى المعنى اللغوي السابق ذكره وإلى العديد من الشروحات التي وردت على حديث الرسول عليه الصلاة والسلام يحاول الكثير من الباحثين تقديم تعريف لمفهوم التجديد. فمثلا يقول أحد الدارسين: "إن التجديد في مجال الفكر أو في مجال الأشياء على السواء هو أن تعيد الفكرة أو الشيء الذي بلى أو قدم أو تراكمت عليه من السمات والمظاهر ما طمس جوهره أن تعيده إلى حاله الأولى يوم كان أو مرة فتجديد الشيء أن تعيده (جديدا) وكذلك الفكر وكذلك –أيضا– الدين."[٣٢] وإذا كان هذا التحديد لمعنى التجديد يركز على الرجوع والإعادة إلى الأصل وإلى الحالة

---

[٢٩] آخرجه أبو داود بسند صحيح.

[٣٠] العظيم آبادي أبي الطيب **عيون المعبود شرح سنن أبي داود** ط٢ (بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٥) ج٦ ص ٢٦٣.

[٣١] ابن الأثير المبارك بن محمد الجزيري **جامع الأصول لأحاديث الرسول** تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ط٣ (بيروت: دار الفكر ١٩٨٣) ج١١ ص ٣٢١.

[٣٢] جمال سلطان **تجديد الفكر الإسلامي** (الطبعة الأولى (الرياض: دار الوطن ١٤١٢) ص ١٣.

الأولى للأشياء والأمور فإننا نجد تعاريفا أخرى تتحدث عن الإحياء وآخرى عن التطوير[٣٣].

ولئن كان للقدماء من علماء المسلمين تصورهم الخاص لمفهوم التجديد وتحليلاتهم المرتبطة بظروفهم وأحوالهم وعوا ئدهم ومشكلاتهم وأوضاعم النفسية والفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فإن للعلماء المعاصرين كذلك رؤاهم وتصوراتهم[٣٤] لمفهوم التجديد على حسب ظروفهم وأحوالهم. وعلى الرغم من اقتراب كثير من التعاريف المعاصرة لمفهوم التجديد من تعاريف القدماء فإننا نجد في بعض التعاريف الآخرى نوعا من التجديد في مفهوم التجديد. فمثلا يقترب تعريف أبو الأعلى المودودي للتجديد من التعاريف القديمة التي تركز على مفهوم الإحياء والتطهير والتقنية فيقول: "تطهير الإسلام من أدناس الجاهلية وجلاء ديباجته حتى يشرق كالشمس ليس دونها غمام...فهو تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية ثم العمل على إحيائه خالصا محضا على قدر الإمكان."[٣٥] كما نجد من جهة آخرى تعريف حسن الترابي لمفهوم التجديد يتصل أكثر بالطرح المعاصر الهادف إلى تطوير مفهوم التجديد بصورة تنعكس فيها طبائع العمران الإسلامي المعاصر فيقول: "إحياء الدين هو كسب تاريخي ينهض بأمر الدين بعد فترة بعثا لشعاب الإيمان الميتة في النفوس

---

[٣٣] يمكن الرجوع إلى: أحمد محمد جاد **فلسفة المشروع الحضاري بين الإحياء الإسلامي والتحديث الغربي**.

[٣٤] راجع: أحمد أمين **زعماء الإصلاح في العصر الحديث** (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٥).

[٣٥] أبو الأعلى المودودي **موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم** ترجمة: محمد كاظم سباق الطبعة الثالثة (بيروت: دار الفكر ١٩٦٨) ص ١٦-٢٦.

بتطول الآماد وقسوة القلوب من خلال التذكير بأصول الدين والموعظة بوازعه ودافعه وإيقاظا للفكر الخامل والعلم الضائع بنشر أصول الشريعة وعلوم التراث وإثارة لطاقات الحركة لتصحيح الواقع الديني المجانب لمعايير الدين تأثرا بضعف الإنسان أو نسيان العلم أو غلبة الباطل. ولما كان دين الله الحق محفوظا في أصوله الباقية فإنما يطرأ الموات والخمول والفتور على كسب المؤمنين وتدينهم. فحركة الإحياء بعثا للروح ويقظة للعلم ونهضة للعمل تتصوب نحو التدين لترتفع به نحو كمالات الدين فتقاربه بأتم ما يوفق إليه الله تعالى. والتطوير فيما أقصد فهو كسب تاريخي أعظم مما يبلغه مجرد إحياء الدين بالبعث والإيقاظ والإثارة لأنه يكيف أحوال التدين التاريخية لتطور جديد في ظروف الحياة وينهض بالدين نحو كسب يثري معانيه ويؤكد وقعه بوجه جديد. ويستصحب هذا التجديد جهدا نفسيا وفكريا وعلميا زائدا تتولد عنه مواقف إيمان وفقه وعمل مصوبة نحو ابتلاءات ظرفية جديدة ناشئة عن انفعال وجداني واجتهاد عقلي واقعي. ولا يتأتى ذلك عن خروج من أطر الدين الحق بل عن تصريف للمعاني والأحكام والنظم المركبة في سياق نصوص الشريعة ذاتها.. فحركة التطوير لا تغشى أصول الشرع ولا تنسخها وإنما على وجود التدين والاجتهاد لفهمها وتحقيقها فما أحاله الشرع للظروف يصرف بحسبها وما جعلته لرأينا وكسبنا رهين بأحوال النقص والاستدراك البشري. وينتج عن هذا الوجه من تجديد الدين بعض أشكال جديدة للتعبير الأتم عن قيم الدين الثابتة من خلال ما يجسدها من واقع الحياة الدينية المستأنفة بينما يهدف التجديد الإحيائي إلى استعادة أشكال الحياة السالفة برمتها."[٣٦]

[٣٦] حسن الترابي **الدين والتجديد** (تونس: دار الراية بدون تاريخ) ص ١٩.

ولكثرة الاتجاهات المعاصرة في النظر إلى مفهوم التجديد[٣٧] فإننا سنثبت خلاصة مهمة لمعظم تلك التراعات والمواقف. يقول أحد الباحثين: "إلا أن دراسة هذا المفهوم عند الاتجاهات التي تتبناه يكشف لنا أربع مجموعات متمايزة في تفسيرها لمضمون التجديد:

المجموعة الأولى: استنساخ الفهوم التراثية واجتهاد مستجدات العصر: إن أصحاب هذه المجموعة يرون في التجديد مصطلحا تراثيا صرفا بل هو مصطلح شرعي لثبوته بالنص النبوي.

المجموعة الثانية: مقاربة الاجتهاد المفتوح/تفاعل العقل والنص: وترى هذه المجموعة في الاجتهاد بمفهومه العام والمفتوح مطابقة لمعنى التجديد...وكذلك يرى حسن الترابي الذي ينتقد الذين يقصرون التجديد على إحياء روح التدين ويرتابون في تجديد يتعرض لأشكال التدين وأحكامه المرنة. على أساس أن التجديد دعوة لا تعدو أن تكون اجتهادا جماعيا نظرا وعملا لبناء نموذج جديد يوحد العنصر الشرعي الخالد في الواقع الظرفي الجديد فيضاهي النموذج الأول في مغزاه الديني. وهكذا يكون للتجديد الديني "وجهان اثنان من داخل الشريعة سمي أدناهما إحياء وأقصاهما تطويرا للدين...

المجموعة الثالثة: إسلامية المعرفة وإصلاح مناهج الفكر/ مقاربة "أزمة الحضارة". واضح تماما كيف كانت المجموعتان السابقتان تركزان على وسيلة التغيير أكثر من موضوعات التغيير حيث تنقلب المسألة هنا إلى العكس. يمثل هذه المجموعة رجالات (المعهد العالمي للفكر الإسلامي)... وعلى هذا فإن المعهد قد تجاوز الرؤية

---

[٣٧] أنظر: محمد إقبال **تجديد التفكير الديني في الإسلام** ترجمة عباس محمود الطبعة الثانية (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨) ١٤٢ وما بعدها.

التجزيئية التي سبق أن وقع فيها بالفصل بين إصلاح مناهج الفكر الإسلامي وإسلامية المعرفة كما سبق أن ذكرنا حيث يندمج هنا "إصلاح المناهج" في "إسلامية المعرفة" ليصبح شعار إسلامية المعرفة شاملا ل:١) بناء النظام المعرفي الإسلامي. ٢) بناء المنهجية المعرفية القرآنية. ٣) بناء منهج التعامل مع القرآن الكريم من خلال الزاوية المنهجية باعتبارها مصدر مسلمات ما قبل المنهج. ٤) بناء مناهج للتعامل مع السنة النبوية المطهرة باعتبارها المصدر التفسيري البياني الملزم الوحيد للنص القرآني. ٥) قراءة التراث الإسلامي قراءة سليمة تخرج عن الدوائر الثلاث التي غالبا ما تحكم أساليب تعاملنا مع تراثنا في الوقت الحاضر: دائرة الرفض المطلق دائرة القبول المطلق ودائرة التلفيق والانتقاء العشوائي كما لا يمكن أن تحقق القطيعة المعرفية مع ما يجب إحداث القطيعة معه من ذلك. ٦) بناء منهج للتعامل مع التراث الغربي. وبهذا الشمول لإسلامية المعرفة تصبح مطابقة للتجديد الفكري...٤)

والمجموعة الرابعة: (خصائص الإنسان المعاصر/ بنية الفكر): هنا يظهر التوجه نحو كشف الأزمة بأبعاد أكثر شمولية وعلى مستوى "كوني" حيث البحث في الأزمة انطلاقا من الخصائص "الجديدة" للإنسان المعاصر...تتجسد المشكلة في خصائص الإنسان المسلم التي يمكن أن تختلف عن خصائص الإنسان المعاصر (العالمي).. فالتجديد –من هنا– هو التوجه نحو العالمية نفسها حيث سيكون الاختبار الحقيقي للفكر الإسلامي على محك التجربة البشرية الواسعة في إطار تصور كوني جديد...وربما كان السابق إلى هذه الرؤية في الفكر الإسلامي والعربي هو محمد أبو القاسم حاج حمد (١٩٧٩) في كتابه "العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة. وهكذا فالتجديد هنا لا يسعى إلى فهم "المقولات الدينية عبر تواصلنا الخاص كحضارة إسلامية ولكن عبر العالمية الأوربية التي تستوعب معالم تطورنا الحديث"...تتصل هذه الرؤية

السابقة للأزمة بالرؤية المقدمة هنا والتي تنطلق من خصائص الإنسان المعاصر نفسه ولكن من منظور عالمي يكتشف في المحصلة الفارق بين المنظومة المحلية الحالية والمنظومة العالمية التي فرضها الإنسان الأوروبي باعتبار أن حضارته هي خلاصة الحضارات ونتاج التجارب الإنسانية. ومن ثم يتحدد مفهوم التجديد بناء على رؤية شمولية تلتقي في النهاية مع "إصلاح مناهج الفكر" على أنه لازم ضروري ل"إسلامية المعرفة" وتتكشف عن تصور لمنهجية التعامل مع النص الإلهي على أساس أنه المعادل الموضوعي للكون. ونحن نتبنى هذه الرؤية حول خصائص الإنسان المعاصر إنسان العالمية الذي جمع خلاصة التجارب الإنسانية وخصوصا الإسلامية حيث انفتح العقل على مصراعيه ليلج باحثا في كل شيء."[٣٨]

إن مختلف هذه الآراء والأطروحات[٣٩] تعكس لنا تلك الحيوية التي يشهدها هذا المفهوم ومدى اهتمام النخب الفكرية المتعدد به. ولكن من الملفت للانتباه في مجمل هذه التحديدات لمفهوم التجديد أنها تركز على جانب واحد أو جانبين من جوانب التجديد. ونستطيع أن نصنف بعض هذه التعاريف والتحديدات إلى تلك التعاريف التي تركز على التجديد في مجال الفكر والتجديد في مجال التدين والتجديد في مجال المنهجية والنظرية المعرفية الإسلامية والتجديد في مجال الإنسان المعاصر والتجديد في مجال الرؤية والمنظور التحليلي. ومن هنا فإننا نلاحظ دوما في الأطروحات التجديدية نوعا من

---

[٣٨] عبد الرحمن الحاج إبراهيم التجديد: **من النص إلى الخطاب بحث في تاريخية المفهوم** مجلة التجديد: مجلة فكرية نصف سنوية محكمة السنة الثالثة العدد السادس أغسطس ١٩٩٩م الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا ص ص ١١٢-١٢٥.

[٣٩] يمكن أن نشير كذلك إلى جهود الأستاذ الدكتور نقيب العطاس ومدرسته في مجال التجديد وخاصة ضمن مشروع إسلامية المعرفة.

التحليل الاختزالي الانتقائي الموضعي **للظاهرة التجديدية**. فهذا المنطق التحليلي يؤدي في كثير من الأحيان إلى ترسيخ النزعة الاختزالية في النظر إلى مفهوم التجديد. فالوضع والواقع العالمي المعاصر والتطور الثوري والنوعي في مناهج التحليل اللغوي والإنساني والحضاري والتاريخي والكوني العام لم يعد يسمح لنا باستخدام منطق الاختزال والتجزيء للوحدة الكلية للمفهوم. فالتجديد مفهوم لا ينبغي أن يعالج فقط على وفق معطيات العلوم الشرعية والتراثية أو العلوم الاجتماعية والإنسانيه والسلوكية أو العلوم الكونية والطبيعية والتقنية..ولا ينبغي أن يُدرس فقط في إطار التحليل التراثي التاريخي أو التحليل الواقعي القائم أو التحليل الإستشرافي المستقبلي..ولا ينبغي أن يُحلل في أبعاده المنهجية والمعرفية والاجتماعية والسياسية والثقافية والفنية والحضارية العامة..ولا ينبغي أن يعالج فقط من منظور الفرد أو الأسرة أو الدولة أو المجتمع أو الأمة..ولا ينبغي أن يُنظر إليه فقط في البعد النظري أو التطبيقي... ولا ينبغي أن يُقارب فقط من ناحية الوسائل والأساليب أو الأهداف والغايات... ولكن التجديد مفهوم مركب ومعقد ومتكامل لا يصلح فيه إلا **المنظور الحضاري المركب والمستوعب لكل تلك العناصر والأبعاد والمجالات التحليلية**. فالتجديد مفهوم ينبغي أن يعالج من كل تلك الزوايا والمداخل حتى لا يجزأ فيفقد وحدته العضوية وتكامله المنهجي ومضمونه المعرفي وآفاقه الحضارية العالمية. ومن هنا فإننا نرى ضرورة مراجعة مفهوم التجديد مراجعة شاملة؛ تكون قادرة على استيعاب كل أبعاده وعناصره مقوماته.

وعلى هذا الأساس يمكن أن ننظر إليه من زاويا نظر متعددة ومتنوعة ولكنها متكاملة. فيمكننا أولا أن ننظر إلى التجديد **كنظرية للإصلاح** والتغيير والبناء والتنمية والتطوير وهنا يصبح موضوع التجديد هو البحث في عالم الأفكار والفلسفات والأهداف والغايات والمنطلقات والمبادئ والمقومات والشروط الأساسية للتجديد...

ويمكننا ثانيا أن ننظر إلى التجديد **كمنهج للإصلاح والتغيير** وهنا يصبح الموضوع الأساسي للتجديد هو عالم المناهج والكيفيات والطرائق الكفيلة بتجسيد حقائق ومعاني التجديد في الواقع. ويمكننا ثالثا أن ننظر إلى التجديد **كمشروع للإصلاح والتغيير** وهنا يصبح الموضوع الأساسي للتجديد هو المشاريع والمخططات والبرامج والسياسات والاستراتيجيات الكفيلة بإحداث التحول في الواقع الإنساني ويمكننا رابعا أن ننظر إلى التجديد **كوعي وسلوك وممارسة** بشرية فعالة وهنا يصبح موضوع التجديد هو التربية والتعليم والتثقيف والتكوين والتهذيب والبناء للشخصية الإنسانية وللبناء الاجتماعي الشامل. ويمكننا خامسا أن ننظر إلى التجديد **كوسائل وأدوات ومؤسسات** وهنا يصبح موضوع التجديد الأساسي هو البحث في التقنية والتكنولوجيا وعالم التنظيم والاستخدام للمعلومات والتكنولوجيات والوسائل المتنوعة. ويمكننا **أخيرا أن ننظر إلى التجديد كفعل حضاري وكعملية**[٤٠] **منهجية مركبة ومتكاملة** لإعادة البناء الشامل للإنسان والمجتمع والدولة والأمة. وفي هذا البعد الأخير لمفهوم التجديد نحتاج إلى كل الأبعاد السالفة الذكر حتى نشكل تصورا شموليا وكليا "للفعل التجديدي". فعندما نتحدث عن التجديد كعملية منهجية مركبة ومتكاملة فإننا بحاجة إلى" **نظرية في التجديد ومنهج في التجديد ومشروع في التجديد ووعي إنساني في التجديد ومؤسسات اجتماعية فاعلة في التجديد**". فالتجديد إذن ليس بالعمل الاعتباطي أو الارتجالي أو السطحي أو الفوضوي الذي يقوم هنا وهناك بدون تخطيط وتنظيم وتوجيه ولكنه ذلك الفعل المنهجي المنظم والموجه والمخطط والعميق الذي يستهدف بالبناء الإنسان والمجتمع والأمة بالصورة التي تتيح لكل مسلم أداء رسالة الاستخلاف على

---

[٤٠] أنظر: جودت سعيد **حتى يغيروا ما بأنفسهم** الطبعة السادسة (دمشق: دار الفكر ١٩٨٤).

وفق الرؤية الكونية التوحيدية. ومن هنا يمكننا القول أن التجديد **هو الفعل الجماعي المخطط الذي ينطلق من نظرية ومنهج ومشروع ووعي ومؤسسات تستوعب بعمق الوضع القائم للإنسان والمجتمع والأمة وتحدد بدقة مكامن الاختلال فيها وترصد مدى انسجام حركتها ووعيها ونشاطها وسلوكها مع النموذج الحضاري التوحيدي وتقوم بالتغيير اللازم في الأشخاص والأفكار والمؤسسات وذلك من أجل إحداث التوازن في الحركة الحضارية على وفق توجيهات الرؤية الكونية ومعطيات الواقع الإنساني المحلي والعالمي.**

ب- موقع الرؤية الكونية[٤١] في التجديد الحضاري المعاصر

فإذا ما أدركنا حقيقة التجديد الحضاري ومتطلباته ومقوماته وطبيعته والسنن المتحكمة فيه وأبعاده الحضارية والتاريخية والكونية العالمية العامة فإننا نكون في وضع يسمح لنا أن نرى مباشرة الدور الفاعل والحيوي الذي يمكن أن تؤديه الرؤية الكونية في كامل الفعل التجديدي وفي مختلف مراحله وخطواته. فإذا كان التجديد فعل منهجي حضاري مركب بحاجة إلى نظرية ومنهج ومشروع ووعي ومؤسسات ونظام توجيهي شامل لكامل الحركة الإنسانية ونسق تربوي وإطار ثقافي حيوي فإن موقع الرؤية الكونية الإسلامية في كل هذه المسائل أساسي ولا غنى عنه. فالرؤية الكونية الإسلامية هي في الحقيقة المصدر والموجه والمُفعل والمُشكل الرئيسي للنظرية والمنهج والمشروع والوعي والنسق التربوي والإطار الثقافي المطلوب لانخراط المجتمع في عملية تجديد حضاري تكون منضبطة بضوابط هذه الرؤية ومحدداتها المنهجية والمعرفية والحضارية.

---

[٤١] أنظر: أحمد محمد كنعان **أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق** الطبعة الأولى سلسة كتاب الأمة العدد: ٢٦ (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ١٤١١) ص ١٤٩ وما بعدها.

فالفعل التجديدي الحضاري الإسلامي لا يمكن أن يُفصل بأي حال من الأحوال عن الرؤية الكونية الإسلامية وعن الواقع الإسلامي القائم. ولهذا السبب نجد أن كل الأيديولوجيات والأطروحات والمناهج التي طبقت على المجتمعات الإسلامية و لم تكون راجعة في أصلها ومصدريتها إلى الرؤية الكونية الإسلامية والتربة الواقعية الإسلامية قد بائت كلها بالفشل الذريع. ويؤكد لنا مالك بن نبي هذه المسألة بصورة واضحة وعميقة عندما يقول: "وعليه فإنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول المناهج مغفلا مكان أمته ومركزها بل يجب عليه أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته أما أن يستورد حلولا من الشرق أو الغرب فإن في ذلك تضييعا للجهد مضاعفة للداء. إذ كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار."[٤٢] فقادة التجديد الحضاري في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ينبغي أن يدركوا حقيقة أن الرؤية الكونية الإسلامية هي المدخل الطبيعي والفطري لتحقيق أي تجديد وتغيير أصيل في الشخصية الإسلامية وفي النظام السياسي وفي الإطار الثقافي وفي كل مجالات النشاط الإنساني. ولقد بينت لنا التجارب والمخططات والإستراتيجيات التي طبقتها مختلف المجتمعات الإسلامية و لم تراع فيها موقع الرؤية الكونية الإسلامية في التنمية كما لم تراع فيها حقيقة واقع الأمة وتشكيلها الديني والثقافي والتراثي..أن التجديد الحضاري الذي لا يدرك هذا الموقع الحيوي الحساس للرؤية الكونية فإن مآله الفشل وتكريس تخلف المجتمع وفوضاه. فكل طرح لا يقدر هذا الموقع والدور فإنه يخفق "في تحقيق آمال الأمة الإسلامية لأنه جهل أو تجاهل المعادلة الخاصة بهذه الأمة التي تطبع تفكيرها وتوجه سلوكها وتحكم مشاعرها وعواطفها أي أنه لم يحط خبرا بجذورها الضاربة في أعناق

---

[٤٢] مالك بن نبي **شروط النهضة** الطبعة الأولى ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين (دمشق: دار الفكر ١٩٨١) ص ص ٤٧-٤٨.

التاريخ الإسلامي الطويل فظن أنه بإمكانه تحويل وجهتها واقتلاعها من جذورها بتغيير محيطها الخارجي كما تدعي النظرية الشيوعية في التغيير فكان أن أخفقت كل الحلول التي تعارضت مع قيم الإسلام مبادئه وروحه."[٤٣]فمسألة الوعي على موقع الرؤية الكونية الإسلامية في الفعل التجديدي الحضاري الإسلامي المعاصر أمر حاسم وفاصل في نجاح هذا الفعل وتحقيقه لغاياته. فموقع هذه الرؤية الكونية ذو دلالات منهجية وفكرية ونفسية ومعرفية واجتماعية وثقافية وتراثية وتاريخية ومستقبلية. فالرؤية الكونية الإسلامية تتموضع في عمق التجديد الحضاري كما يتموضع القا ب في الجسد البشري. فالنفسية الإسلامية والثقافة الإسلامية والاجتماع الإسلامي والتراث الإسلامي لا يمكن تفعيله وتجديده ما لم نمتلك مفتاح ذلك التجديد وموجهه الرئيس وهو الرؤية الكونية الإسلامية. فإذا كان التجديد الحضاري بحاجة إلى الفرد والجماعة والمجتمع والدولة والأمة... وإلى التربية والثقافة والمعرفة والمنهجية والفكر... وإلى الاقتصاد والسياسية والاجتماع والعمران والتقنية والصناعة والتكنولوجيا... وإلى الوسائل والتنظيم والإدارة والتخطيط والتسيير والمراجعة... وإلى كثير من الأمور الآخرى. فإن كل هذه العناصر والأمور بحاجة ماسة إلى الرؤية الكونية الإسلامية التي ترشدها إلى السنن الفاعلة في التجديد والطبائع العمرانية الجارية على الفعل والنشاط التجديدي. ويزيد أحد المثقفين في توضيح هذا المعنى بقوله: "ولابد أيضا أن نتذكر أن أي عمى حضاري يتألف من عدد من المكونات بعضها عقائدي وبعضها قومي وبعضها فني. ولا شك أن للعقيدة الدور الأول في حث الإنسان على الاندفاع للقيام بهذا العمل."[٤٤] ويزيد باحث آخر

---

[٤٣] الطيب برغوث **الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية** الطبعة الأولى (الجزائر: دار البعث ١٩٨٥) ص ٥٧.

[٤٤] سيد دسوقي **مقدمات في مشاريع البعث الحضاري** ص ١٢٩.

في توضيح موقع الرؤية الكونية في التجديد الحضاري بقوله: "فإن الفكرة الدينية عامل أساسي في التغيير الاجتماعي نحو الحضارة."[٤٥] فموقع الرؤية الكونية أساسي في عملية التجديد الحضاري وكما يؤكد أحد كبار المفكرين المعاصرين فان: "الحضارة (التجدد الحضاري) لا تنبعث — كما هو ملاحظ - إلا بالعقيدة الدينية وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها...فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجا أو هي — على الأقل - تقوم على أسسها في توجيه الناس إلى معبود غيبي بالمعنى العام فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها...وعلاوة على ذلك فالفكرة الدينية التي تشرط سلوك الفرد — كما سبق أن أوضحنا ذلك - تخلق في قلوب المجتمع بحكم غائية معنية. وذلك بمنحها إياها الوعي بهدف معين تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى. وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل ومن طبقة إلى آخرى فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع ودوامه وذلك بتثبيتها وضمانها لاستمرار الحضارة (التجديد الحضاري)."[٤٦] وهكذا تتأكد لنا حقيقة مهمة هي أن للرؤية الكونية الإسلامية موقعا مركزيا استراتيجيا في عملية التجديد الحضاري. "وهكذا تتولى كلمة الوحي النفس الإنسانية بالعون والتثبيت والهداية حتى لا تخور ولا تضل ولا تسقط دون القصد الذي توجهت إليه بداعية ذاتها.. فيتخذ الإنسان نفسه المنطلق الأول نحو تحصيل المدارك إذ يدرك نفسه أولا ويدرك وجودها ويدرك استعدادها للمعرفة..وبهذا الإدراك المزدوج

---

[٤٥] كنعان **أزمتنا الحضارية** ص ١٥٣.

[٤٦] بن نبي **شروط النهضة** ص ص ٥٠-٧٢.

يتوجه إلى تحصيل المعرفة توجها غريزيا هو حقيقة التطلع التي جُبل الإنسان عليها. فإذ أخذ النظر أخذت الدعوة الدينية تماشيه لا تقوده ولا تدفع به بل تحذره من الغلط والتيه والضلال وتحمي غريزة التطلع الدافعة به من الغوائل والعوائق التي طالما أتت على الغرائز فعطلتها أو أفسدت عملها أو سارت بها على غير قصد...والدعوة الدينية في كل ذلك منه بالمرصاد تقويه وتثبته وتدفع عنه العوائق والمثبطات والمضللات."[٤٧] إن الرؤية الكونية الإسلامية تمارس في الحقيقة فعلها المؤثر انطلاقا من تغيير الإنسان ووضع المنهج الصحيح للحركة وتقديم الشرائع اللازمة لإكمال حلقات التجديد الحضاري المتكاملة. فأول ما تؤديه الرؤية الكونية الإسلامية في عملية التجديد الحضاري هو أنها تقدم لنا أنموذج الإنسان الصالح الذي يحمل مسؤولية البناء الحضاري التاريخي الإسلامي كما تقدم لنا صورة شبكة العلاقات الاجتماعية المطلوبة في كل تجديد حضاري. ويتم هذا العمل عندما تبدأ الرؤية الكونية في توجيه عملية بناء الإنسان وتكييفه لينخرط في عملية التجديد وإجراء التغيير اللازم في نفسيته وذهنيته وعقليته وشخصيته كيما يصبح مؤهلا للدخول في عمل تجديد حضاري. ويعبر ابن خلدون رحمه الله عن هذا الدور الذي تقوم به الرؤية الكونية الإسلامية على طريق التجديد الحضاري بقوله: "إن الصبغة الدينية تذهب التنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء لأن الوجهة واحدة والمطلوب مستاو عندهم. وهم مستميتون عليه."[٤٨] إن هذه الملاحظات المتعددة تبين لنا بما لا يدع مجالا

---

[٤٧] محمد الفاضل بن عاشور **روح الحضارة الإسلامية** ضبطها وقد لها عمر عبيد حسنة الطبعة الأولى (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي ١٩٩٢) ص ص ٢٤-٢٥.

[٤٨] عبد الرحمن ابن خلدون **مقدمة ابن خلدون** تحقيق: علي عبد الواحد وافيج٢ (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر دون تاريخ) ص ٥٢٧.

للشك الأهمية والدور الخاص الذي تؤديه الرؤية الكونية الدينية في عملية التجديد الحضاري؛ انطلاقا من توفير الرؤية والمنهج والمشروع إلى بيان حقيقة الشخصية الإنسانية المتوازنة والثقافة الحضارية المنسجمة وانتهاء بخلق الدافعية واللحمة الاجتماعية اللازمة لكل تجديد حضاري. وليس أدل على هذا من القدرة الهائلة التي أبرزها الإسلام في عملية البناء الحضاري الإسلامي الأول الذي آخرج للبشرية واحدة من أعظم الحضارات الإنسانية؛ بما تتضمنه من نماذج بشرية وأنساق ثقافية ومناهج علمية ومعارف حضارية وقيم إنسانية وشرائع قانونية وإنجازات حضارية تاريخية في كل مجالات الحياة.

الخاتمة

إن هذه الجولة المتواضعة في موضوع "موقع الرؤية الكونية الإسلامية في التجديد الحضاري" كشفت لنا عن حقيقة الرؤية وأسسها ومبادئها الكبرى وبينت لنا ما تمتلكه هذه الرؤية من مخزون ودلالات منسجمة مع الفطرة الإنسانية ومتجاوبة مع حاجات الإنسان المتعددة والمتطورة. فالرؤية الكونية الإسلامية رؤية حضارية في الأساس؛ حيث وجدنا أن كثيرا من أسسها تنزع نحو ترسيخ القيم الحضارية في الحياة الإنسانية وتدعو إلى تحقيق الاستخلاف بمعناه الحضاري الإبداعي الذي يهدف إلى بناء الإنسان والثقافة والمجتمع والحضارة المتوازنة والمتطورة. كما أوضحت لنا هذه الورقة حقيقة التجديد الحضاري المعاصر وحاجته الماسة إلى الرؤية الكونية الإسلامية. ومن هنا فالمطلوب من الحركة التجديدية المعاصرة هو أن ترتفع بوعيها وفهمها وممارستها إلى مستوى حقائق الرؤية الكونية الإسلامية المعجزة والمتحدية للإنسان في كل زمان ومكان. فعندما يرتفع الوعي الإسلامي إلى مستوى الرؤية الكونية الإسلامية؛ فإن هذا الوعي سيغتني بقيم

هذه الرؤية وتوجيهاتها المنسجمة مع الفطرة والمتوافقه مع سنن العمران الحضاري. وعلى هذا الأساس فإن هناك حاجة إلى بناء نظرية إسلامية معاصرة وعالمية للتجديد الحضاري تستوعب كل أبعاد التجديد وتنظر إليه ككل مركب مستوعب لكامل الحياة الإنسانية ومتوجه نحو تمثل القيم الحضارية الإسلامية في كل مجالات الفعل الحضاري وذلك بإعطاء السيادة والقيادة والتوجيه للرؤية الكونية الإسلامية.